أسئلة القراءة ودورها في التّأسيس لمقاربة جديدة في تجريب فعل القراءة

أ.د. عبد الواسع الحميري

قسم اللغة العربية
كلية العلوم الانسانية
جامعة الملك خالد

المستخلص:

تحاول هذه الدّراسة الإجابة عن أسئلة القراءة التّأسيسيّة المركزيّة الثلاثة: ماذا نقرأ؟ كيف نقرأ؟ لماذا نقرأ ما نقرأ؟ وذلك انطلاقاً من النّص القرآنيّ المؤسّس للوجود والعالم؛ حيث تمّ التّوقّف عند دلالات وأبعاد الخطاب الإلهيّ الآمر بما أسمته الدّراسة بـ" تدشين مشروع النّبوّة" في سورة العلق، ومحاولة الإجابة عن تلك الأسئلة التّأسيسيّة، انطلاقاً من الدّلالات المباشرة والحافّة لذلك الخطاب الإلهيّ الآمر.

وقد تمّ تناول قضايا الدّراسة في أربعة محاور رئيسة، مسبوقة بمقدّمة أو تمهيد؛ تمّ خلاله طرح أسئلة القراءة الثلاثة، كلّاً على حدة، وبيان دلالاتها وأبعادها، ومدى أهميّتها في توجيه مسار القراءة، وفتح آفاقها أو العكس. وفي المحور الأوّل من محاور الدّراسة، فقد تمّ تناولما أسمته الدّراسة بـ" انفتاح آفاق القراءة". وتمّ في المحور الثّاني، تناولما أسمته بـ" انفتاح مواقع القراءة" وفي الثّالث، تناولما أسمته بـ" انفتاح وظائف القراءة". لنلحق، بهذا المحور الأخير، محوراً آخر تكميليّاً،أسميناه " انفتاح مستويات القراءة". وفيه تمّ تناول مستويات خمسة للقراءة، تناولت الدّراسة خلال المستوى الأوّل ما أسمته بـ" قراءة الإتقان" وتناولت في المستوى الثّاني ما أسمته بـ" قراءة الأداء". وتناولت في المستوى الثّالث ما أطلقت عليه بـ" القراءة المعرفيّة"، وفي المستوى الرّابع ما أسمته بـ" القراءة النّقديّة"، وتناولت في المستوى الخامس ما أسمته بـ" القراءة المتعويّة". وانتهت بخاتمة موجزة، تضمّنت أهمّ النّتائج والتّوصيات. فثبت موجز بأهمّ المصادر والمراجع.

The questions of "reading" and their role in establishing a new approach to the act of "reading"

Abstract:

This study attempts to answer the fundamental and central questions of reading, namely: "What do we read?", "How do we read?", and "Why do we read?" These questions are based on the Quraanic text that established existence and established the world as well. This research attempts to investigate the semantic implications and dimensions of the directive divine discourse which I have called the inauguration of prophecy project in the Chapter ofalalq (the clot). It also seeks to find out answers to the above-mentioned fundamental reading questions on the basis of the direct meanings and indirect connotations of the divine order "read".

The research issues have been divided into four themes preceded by an introduction or a preface. The three questions of reading are presented separately. Moreover, the study presents the significance, dimensions, and importance of these questions in directing the "reading" track and in opening or closing reading prospects. The first theme of the study deals with "the openness of reading prospects"; the second theme deals with "the openness of reading sites"; and the third one discusses "the openness of reading functions" followed by the last supplementary theme that deals with "the openness of reading levels". Five levels of reading are presented in the last part of the study. The first level is called "mastery reading"; the second level is named "performance reading"; the third level is named by the author as "cognitive reading"; the fourth one is labelled as "critical reading" level; and the last level is named "reading for pleasure". The study concluded with results and recommendations followed by a list of the references cited.

-١- مدخل الدّراسة

تسعى هذه الدّراسة إلى طرح " أسئلة القراءة" المركزيّة الثّلاثة: ماذا نقرأ؟ كيف نقرأ؟ لماذا نقرأ ما نقرأ؟ ومحاولة الإجابة عنها، انطلاقاً من النّص القرآنيّ المؤسّس للوجود والعالم؛وذلك بغية الوقوف على دلالات هذه الأسئلة وأبعادها، وما يمكن أن تؤسّس له من مواقف ورؤى من شأنها أن تسهم في فتح وعي القارئ الأكاديمي التّخصّصيّ على آفاق جديدة للقراءة، وتحفزه على المزيد من العطاء المتجدّد في حقل اختصاصه.

لكن لماذا " أسئلة القراءة " تحديداً ؟

ولماذا هذه الأسئلة، انطلاقاً من مرجعيّة النّص القرآنيّ المؤسّس؟

وكيف؟

تؤشّر هذه الأسئلة، إلى أنّه يتوجّب على الباحث – بادئ ذي بدء–تِبْيَانُ ما يأتي:

-أوّلاً: إشكاليّة الدّراسة:

وتتمثّل إشكاليّة الدّراسة في طرح أسئلة القراءة المركزيّة الثّلاثة– المشار إليها-على واقع القارئ الأكاديميّ التّخصّصيّ الذي وجد نفسه محصوراً في دائرة اختصاصه المغلق، وما يمكن أن تثيره هذه الأسئلة لديه من إشكالات منهجيّة وما تفرضه عليه من مراجعات والتزامات، ليس بأقلّها وَعْيُهُ بضرورة الانفتاح على متعدّدالمقروءات النّصوصيّة التي تنتمي إلى متعدّد الحقول المعرفيّة المحايثة لحقل اختصاصه الأصليّ، والتّفاعل معها بطرائق وأساليب (إستراتيجيّات) قرائيّة مختلفة؛ تنسجم مع طبيعة كلّ مقروء على حدة،على نحو من شأنه أن يسهم في كسر قيد التّخصّص الأكاديميّ الضّيق وإعلان حالة الخروج إلى فضاءات القراءة البينيّة التي يتجاوز خلالها الوعي القارئ حدودَ الحقل المعرفيّ الذي ينتمي إليه، إلى حقول معرفيّة أخرى؛ هي على صلة مباشرة أو غير مباشرة بمجال الاختصاص الأصليّ للقارئ، هذه القراءة التي نعتقد أنّها باتت اليومَ- أكثر من أي وقت مضى- تمثل ضرورةً ملحّة من ضرورات الحياة الإنسانيّة المعاصرة، وشرطاً أساسيّاً من شروط انتماء الإنسان القارئ إلى العصر، ومشاركته الفاعلة في إنتاج معارفه وقيادة مسيرة النّهوض بحياة مجتمعاته.

-ثانياً: أسئلة الدّراسة:

وكما هو جليّ، فإن أسئلة الدّراسة هي عينها أسئلة القراءة المركزيّة الثّلاثة ذاتها: ماذا نقرأ ؟كيف نقرأ ؟لماذا نقرأ ما نقرأ ؟ ولا شيء سوى هذه الأسئلة؛ إذ هي لا سواها الأسئلة التي ستطرحها الدّراسة على القارئ، وستحاول الإجابة عنها، انطلاقاً من مرجعيّة النّص القرآنيّ المؤسّس.

-ثالثا: أهميّة الدّراسة:

تستمدّ الدّراسة أهميّتها:

أ. من أهمّيّة موضوعها: أسئلة القراءة التي تطرحها، وتحاول الإجابة عنها،
ب. ومن أهميّة المرجعيّة التي تنطلق منها في محاولتها الإجابة عن تلك الأسئلة؛ إذ هي تنطلق- كما سبقت الإشارة- من مرجعيّة النّص القرآنيّ المؤسّس للوجود والعالم، وليس من أيّة مرجعيّة بشريّة أخرى.

-رابعاً:أهداف الدّراسة:

تهدف الدّراسة إلى تحقيق هدفين رئيسين:

١. كسر جمود القراءة الأكاديميّة التّخصّصيّة وفتح وعي القارئ التّخصّصي على مجالات جديدة، وعلى آليّات وطرائق جديدة في القراءة،من شأنها أن تثري وعيه في مجال

تخصّصه الأصليّ، وتساعده على تطوير ذاته، والنّهوض بدوره الأكاديميّ في خدمة مجتمعه وأمّته.

٢. الإسهام في التّأسيس لمقاربة جديدة في تجريب فعل القراءة، بمفهومه الشّامل والمتكامل الذي ستبلور ملامحه الدّراسة.

ـخامسا: منهجيّة الدّراسة:

اعتمدت الدّراسة،في الإجابة عن أسئلة القراءة التي تطرحها،المنهج التّحليليّ التّأويليّ الذي من شأنه أن يتيح للباحث تحليل أسئلة القراءة الثلاثة، وتأويل دلالاتها وأبعادها، ومن ثمّ استنباط ما تؤسّس له تلك الدّلالات والأبعاد من مواقف ورؤى، من شأنها أن تسهم في فتح وعي القارئ على كلّ جديد مفيد في عالم القراءة.

ـسادساً: مخطّط الدّراسة:

وقد سارت الدّراسة وفق المخطّط الآتي:

- التّمهيد:
  وفيه تمّ عرض إشكاليّة الدّراسة، وأسئلتها، وأهدافها، وأهمّيتها، ومنهجيّتها، إضافة إلى عرض موجز بأهمّ المصطلحات والمفاهيم الواردة فيها.
- محاور الدّراسة الرّئيسيّة:
  حيث تمّ تناول قضايا الدّراسة في أربعة محاور رئيسة، هي: ١- انفتاح آفاق القراءة. ٢- انفتاح مواقع القراءة. ٣- انفتاح وظائف القراءة. ٤- انفتاح مستويات القراءة.

ـسابعا: مفاهيم الدّراسة (الكلمات المفاتيح):

من المفاهيم المركزيّة التي استدعتها الدّراسة:

- القراءة"؛يأتي الفعل " قرأ" في سياق التّداول العاديّ، بمعنى الجمع والضّم؛ ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في التّلاوة والتّرتيل، ومنه " قراءة " (القرآن)؛سمّي قرآناً، لأنّه جَمَعَ القصصَ والأمرَ والنّهي والوعد والوعيد والآيات والسّور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران ([1]). كما يأتي الفعل " تَقَرَّأَ " بمعنى تَفَقَّهَ، والفعل " قَرَأَ عليه" و" أَقْرَأَهُ" بمعنى أبلغه، و" القُرْءُ" يطلق على " الحيض"، وعلى " الطّهر"،وعلى " الوقت" ، وعلى " القافية"، و" القِرَأَةُ "بكسر القاف: الوَبَاءُ ([2]).أمّا في سياق التّداول الاصطلاحيّ، أي في دائرة الاستعمال النّقديّ، فقد صار للقراءة معان ودلالات أخرى كثيرة؛ متعدّدة بتعدّد التيّارات والاتّجاهات النّقديّة المختلفة، ممّا لا يتّسع المقام هنا لعرضه.
- "أسئلة القراءة"؛ هي أسئلة القراءة الثّلاثة؛ موضوع هذه الدّراسة: ماذا نقرأ ؟، وكيف نقرأ ؟، ولماذا نقرأ ما نقرأ ؟،
- " النّص المؤسّس": ونعني به النّص القرآنيّ؛وقد أطلقت عليه الدّراسة هذا الوصف؛ كونه النّص المؤسس للوجود الإسلامي؛ أمّةً ودولةً وحضارةً.
- " انفتاح آفاق القراءة": ونعني بذلك تعدّد مجالات القراءة،
- " انفتاح مواقع القراءة": ونعني بذلك تعدّد طرائق وأساليب(ومناهج) التّفاعل مع النّص المقروء بكافّة أشكاله وتشكّلاته.

وثمّة مفاهيم أخرى استدعاها سياق الدّراسة، وتمّ استعمالها، بعد تعريفها في مواضعها، بحيث لم تعد بحاجة- هنا- إلى مزيد شرح أو إيضاح ([3]).

ـ٢ـ أسئلة القراءة

بالعودة إلى أسئلة القراءة المركزيّة الثّلاثة؛ موضوعالدّراسة، فإنّه يمكن تناول هذه الأسئلة مرتّبةًعلى النّحو الآتي:

أ. سؤال الماهية؛ ماذا نقرأ؟

وهو سؤال نستهدف خلاله تحديد الحقل المعرفيّ الذي ينتمي إليه القارئ، وينتمي إليه، في الآن ذاته، النّص المقروء، ومن ثمّ، تحديد المجال أو المضمار الذي يتبارى فيه القرّاء للكشف عن ذواتهم واكتشاف إمكاناتهم في القراءة، ومن ثمّ أيضاً، الكشف عن الجديد المفيد في عالم القرّاءة. وهو حقّاً سؤال إشكاليّ، على الأقلّ، بالنّسبة للقارئ

[1] ينظر: مادّة (ق- ر- أ) في لسان العرب.
[2] ينظر: مادّة (القرآن) في لسان العرب.
[3] وتلك المفاهيم هي: " انفتاح وظائف القراءة"، و" انفتاح مستويات القراءة"، و" قراءة الاتقان"، و" قراءة الأداء"، و" القراءة الوظيفيّة"، و" القراءة المعرفيّة البسيطة"، فـ" القراءة المعرفيّة المرّكّبة"، و" القراءة النّقديّة"، و" القراءة المتعويّة". هذه المفاهيم جميعاً من المفاهيم التي سعت الدّراسة- كما أشرنا- إلى تحريرها في مواضع استعمالها، والكشف عن أهمّ الدّلالات والفروق التي تميّز بعضها عن بعضها الآخر، لذلك فهي لا تحتاج هنا إلى مزيد شرح أو توضيح.

الأكاديميّ المتخصّص في حقل ما (محدّد) من حقول المعرفة الإنسانيّة التي باتت اليوم معروفةً في الدّرس المؤسّسيّ الأكاديميّ الجامعيّ؛ وهل على القارئ عموماً، وعلى هذا النّمط من القرّاءخصوصاً،أن يبقى محصوراً في إطار المجال الضّيق لاختصاصه، وأن يلتزم قراءة ما يدور في فلك تخصّصه الدّقيق من مقروءات، أم عليه أن يوسّع من دائرة اهتمامه، لتشمل مقروءاتهحقولاً معرفيّة أخرى، هي على صلة ما؛ قريبة أو بعيدة بحقل اختصاصهالدّقيق والمباشر ؟، فلكي يسهم هذا القارئ في إنتاج معرفة جديدة نافعة ومفيدة لمجتمعه، أعتقد أنّه يلزمه كسر قيد التّخصّص الضّيق وإعلان حالة الخروج إلى فضاءات أوسع وأرحب، تتّسع لتلك التّخصّصات وتجمع أشتاتها، في الوقت ذاته.

أشير هنا إلى ما يمكن تسميته بـ" القراءات البينيّة" التيتجاوز خلالها الوعي القارئ حدودَ الحقل المعرفيّ الذي ينتمي إليه، إلى حقول معرفيّة أخرى؛ هي على صلة مباشرة أو غير مباشرة بمجال اختصاصه، وهل بات يمثّل اليومَ هذا النّوعُ من القراءةضرورةً ملحّة من ضرورات الحياة الإنسانيّة المعاصرة، وشرطاً أساسيّاً من شروط مشاركة إنسان هذا العصر في إنتاج معارفه وقيادة مسيرة النّهوضبحياة مجتمعاته، أم أنّها ما تزال تمثّل فائضاً عن حاجة المجتمعات الإنسانيّة المعاصرة، وضرباً من التّجاوز الذي لا يمكن أن يفضي إلى نتائج حميدة في حياة الفرد القارئ والمجتمع على السّواء ؟.

ب. سؤال الكيف؛ كيف نقرأ ما نقرأ؟

وهو سؤال نستهدف من خلاله تحديد أيديولوجيّة القارئ؛ منهجيّته في قراءة ما يقرأ[٤]؛ زاوية رؤيته لما يقرأ، ومن ثمّ، تحديد موقعهممّا يقرأ: وهل يقرأ ما يقرأ من موقع أنّه مالكٌلمقروئه، متصرّفٌ فيه،أم يقرأُهُ من موقع أنّه مملوكٌلمقروئه وتابعٌ له، ومستلبٌ بشروط قراءته، أم يقرأُهُ من موقع التّفاعل والجدل مع مقروئه، ومن ثمّ، من موقع الاعتراف بحقّ هذا المقروء في الوجود الحرّ والمباشر، وتعاطي الكلام معه بنديّة كاملة؟

نشير هنا إلى أنّ ثمّة إستراتيجيّات ثلاثة لقراءة المقروء، يتمخّض عنها ثلاثة أنساق قرائيّة كبرى:

- ما أسمّيه أوّلاً: بإستراتيجيّة الذّهاب إلى← المقروء، لقراءته كما هو في ذاته، ويتمخّض عنها ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة الاستلابيّة التّابعة".
- وما أسمّيه ثانياً: بإستراتيجيّة الإياب عن→ المقروء، لقراءته، كما أنا، ويتمخّض عنها، ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة المتعالية".
- وما أسمّيه ثالثاً: بإستراتيجيّة الذّهاب إلى المقروء والإياب ↔عنه في الآن ذاته، ويتمخّض عنها ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة التّفاعليّة الجدليّة"([٥]).

غير أنّ السّؤال الذي علينا المبادرة إلى طرحه هنا: أيّ هذه الإستراتيجيّات القرائيّة الثّلاثة هي الإستراتيجيّة التي تساعدنا كقراء، علىكسر حالة الجمود الكتابيّ النّقديّ والمعرفيّ التي كنّا وما زلنا نرزح تحت وطأتها، وتمكّننا من إنتاج الجديد المفيد (والمختلف) في عالم القراءة؟

سنحاول الإجابة عن هذا التساؤل لاحقاً.

جـ. سؤال العلّيّة؛ لماذا نقرأ ما نقرأ؟

وهو سؤال نستهدف خلاله الكشف عن أهداف القراءة ومقاصدها، ومن ثمّ، عن وظائفها القريبة والبعيدة؛ المباشرة وغير المباشرة؛ وهي أهداف ومقاصد ووظائف تختلف وتتفاوت باختلاف القرّاء، من جهة، وباختلاف أوضاعهم وسياقات قراءتهم، فضلاً عن تفاوت إمكاناتِهم في القراءة، من جهة ثانية. ما يضعنا إزاء مستويات مختلفة من القراءةَ، سنعرض لها لاحقاً، بعد أن نكون قد حاولنا البحث عن إجابات ممكنة لهذه الأسئلة الإشكاليّة الثّلاثة، انطلاقاً من مرجعيّة النّصّالقرآنيّ المؤسّس.

-٣-

حتى نتمكّن إذن من الإجابة عن أسئلة القراءة الثّلاثة الموضّحة آنفاً،يمكننا التّوقّف عندالخطاب الإلهيّ الآمر بتدشينَ مشروع النّبوّة والرّسالة الإسلاميّة المحمّديّة الخاتمة والخالدة، في قوله تعالى:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّاإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى(٧)﴾(سورة العلق:١-٧).

---

[٤] داخلا في ذلك فلسفة القارئ، وأدواته في القراءة.

[٥] ينظر في هذا: الحميري (عبدالواسع)، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) بيروت، ط أولى، ٢٠١٣م: ٢٨١.

(٣-١) انفتاح آفاق القراءة

حيث نلحظ أنّ خطاب هذه الآيات الآمر قد توجّه إلى النّبيّ محمّد (ﷺ)؛ آمراً إيّاه بتدشين [٦]مشروع النّبوّة والرّسالة، بوصفه:

١-مشروع قراءة كليّة مفتوحة؛ لمقروءٍ كلّيٍّ مفتوحٍ؛ متعدّدٍ ولانهائيّ؛ بدلالة انفتاح فعل القراءة المأمور به في ملفوظ خطاب الآية الأولى (اقرأ)- هكذا دونَ أيّةِ إشارةٍ نصيّةٍ إلى مقروءٍ بعينه- وعدم تسمية المقروء أو تحديد هويّته؛ بما يؤشّر إلى عموم المأمور بقراءته، وانفتاحه على كلّ ما يمكن قراءته وإقرائه من نصوص القول أو الفعل، ومن ثمّ، على كلّ ما هو دالٌّ، وله دلالةٌ؛ ظاهرةٌ أو خفيّةٌ؛ يمكن اكتناهها واستنطاقها أو استنباطها، وعدم حصر هذا المقروء- فقط- في نصّ الكلام الإلهيّ (الوحي) في هذه الآية، وفي الآيات الأربع التي تليها، كما تذكر بعض المرويّات التّاريخيّة التي تلحّ على ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات من السّورة، وتحاول حصر الأمر الإلهيّ بـ" القراءة" في الآية، في مقروء واحد- كما قلنا- هو النّص القرآنيّ المتشكّل من جملة الآيات الخمس الأُوَل من هذه السّورة [٧]. على الأقلّ، إعمالاً للقاعدة الأصوليّة الشّهيرة القائلة:" إنّ العبرة بعموم اللّفظ، وليس بخصوص السّبب".

زد على ذلك، أنّ الأمر الإلهيّ بالقراءة، في الخطاب القرآنيّ المؤسّس عموماً، قد جاء أمراً كلّيّاً مفتوحاً، ليشمل قراءة الآيات القرآنيّة النّصيّة، وقراءة الآيات الكونيّة والأنفسيّة، على السّواء، بما يؤكّد أنّ مشروع النّبوّة والرّسالة المأمور بتدشينه في مطلع هذه السّورة، يعدّ في جوهره:

٢-مشروع قراءة وإقراءٍ لآيات القرآن أوّلاً؛

هذا الكتاب العزيز الذي أُنزِلَ عليه (ﷺ) بواسطة الأمينِ جبريلَ عليه السّلامُ، وأُمِرَ بقراءته وإقرائِه/ إبلاغه إلى العالمين كافّةً، وتضمّنت تسميته بـ (القرآن) شرطَ قراءتِه وإقرائِهِ. فالقرآنُ- كما نعلم [٨]- اسمُ مصدرٍ من قَرَأَ الكتابَ يقرأُه قراءةً وقرآناً: بمعنى جمعه، وضمّ بعضَ أجزائه إلى بعضها الآخر. قيل: سمّي القرآن قرآناً؛ لأنّه يجمع الآياتِ والسّورَ، فيضمّ بعضَها إلى بعضٍ، أو لأنّه جُمِعَ فيه القصصُ والأمرُ والنّهيُ والوعدُ والوعيدُ.

وأقول، مضيفاً إلى سببِ التّسميةِ هذا، سبباً آخرَ؛ يتمثّل في أنّ وجود هذا الكتاب العزيز المسمّى قرآناً (وجودَهُ الفعليّ، وليس وجوده بالقوّة) مرتهنٌ بقراءته، فهو مشروط بالقراءة وجوداً وعدماً؛ فبالقراءة كان أو وُجِدَهذا الكتاب/ القرآن في العالم الإلهيّ، وبالقراءة كان ويكون– بمعنى يتحقّق شرط وجوده- في العالم البشريّ؛فقد أنزل على النّبيّ محمّد (ﷺ) – بواسطة الأمين جبريل- مقروءاً / متلوّاً، وَأُبْلِغَ منه (ﷺ) إلى كتّابِ الوحي من الصّحابة، وعبرهم، إلى الكافّة أيضاً، مقروءاً متلوّاً؛ فبالقراءة/ التّلاوةِ إذن كان (أو أنزل) على النّبيّ الرّسول (ﷺ)، وبالقراءةِ/ التّلاوةِ كان ويكون في عالم الإنسان على مرّ العصور والأزمان، ومن ثمّ، فهو كتاب ينفتح ويتفتّح (تتعدّد دلالاته ويتجدّد وجوده) في عالم القراءة الإنسانيّة المتجدّد والمفتوح؛ زماناً ومكاناً وإمكانات.

لذلك فلا غرابة إذن أن يرد لفظا: القرآنِ والقراءةِ- في لسان العرب وفي الخطاب القرآنيّ الواصف- كليهما بمعنى واحدٍ، شأنهما في ذلك شأنُ دلالةِ كلمتيِ: الخسران والخسارة، قاله ابْنِ عَبّاسٍ [٩]، مستدلّاً على ذلك بقوله جلّ وعزّ:﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القِيامَة: ١٨)، والمعنى: فاتّبع قراءته،بمعنى تِلاوَتَهُ، أيْ إذا تَلَوْناهُ عَلَيْكَ فاتَّبِعْ تِلاوَتَهُ. وفي هذا إشارة مهمّة إلى ديناميّة النّص القرآنيّ، وحيويّته، وأنّه حقّا نصّ يَعْتَمِلُ في أفق

---

[٦] مشتق من الفعل "دَشَنَ" ومعناه- في لسان العرب-: أعطى، و" تَدَشَّنَ" ومعناه: أخذ، أو شرع في. ومنه "الدّاشِنُ" معرب الدّشن، يعنون به الثّوب الجديد الذي لم يلبس بعدُ، والدّار الجديدة التي لم تسكن بعد. (ينظر: مادة: د- ش- ن" في القاموس المحيط وفي لسان العرب).

[٧] فقد روي في الصحيحين، من حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التّعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتّى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثّالثة، ثمّ أرسلني، فقال: { اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم } ...إلخ الحديث(ينظر: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م كتاب بدء الوحي).

[٨] ينظر: مادة (ق- ر- أ) لسان العرب.

[٩] ينظر: نفسه.

القراءة وإعادة القراءة، بصورة مستمرّة، ومن هنا سرّ خلودِهِ، ومن ثمّ، سرّ صلاحّيتِهِ لكلّ زمان ومكان.

٣-ومشروع قراءة وإقراء لآياته تعالى المبثوثة في الكون والإنسان ثانياً، بدليل آخر؛ يتمثّل في الآتي:

أ. تكرار فعل القراءة المأمور به، في هذه السّورةالافتتاحيّة ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، بصيغته المفتوحة التي لم يسمّ خلالها المقروءَ، فأن يرد هذا الفعل مفتوحاً في الموضعين كليهما، إنّذلك لمؤشّرٌ جليٌ على أنّ فعل القراءة المأمور بتدشينه هنا، في هذه السّورة الافتتاحيّة، يعدّ- كما سبق القول- فعل قراءة كلّيّة مفتوحة لمقروء كلّيّ مفتوح.وبما يؤشّر إلىأنّعلى الوعي القارئ الانفتاح على كلّ جديد مفيد، في مجالات الكون والحياة بكافّة أشكالها ومستوياتهاومجالاتها؛ الإنسانيّة وغير الإنسانيّة؛ وبحيث يشمل- بالنّسبة للإنسان المعاصر-كلّ ما أنجزه الإنسان القديم والمعاصر على صعيد العلوم والفنون عموماً؛ علوم الفلك، أو ما بات يسمّى اليوم بعلوم الفضاء، والفيزياء والرّياضيات والأحياء وعلوم النّبات والبحار؛ إضافة إلى علوم الطّب والهندسة، فضلاً عمّا بات يسمّى اليوم بـ"العلوم الإنسانيّة"؛ لسانيّات، وعلم نفس، واجتماع، وسياسة، واقتصاد، وإدارة،وإعلام..إلخ، ممّا يمكن أن يشكّل مجالاً خصباً لإثراء ما يمكن تسميته بـ" القراءات البينيّة".

ب-إنّفعلي: (التّلاوة) و(التّرتيل)، وهما فعلان متعدّيان إلى مفعول شأن فعل القراءة،قد جاءا في القرآن - خلافاً لفعل القراءة-فعلين مغلقين، في كلّ مواضع ورودهما، على مَثْلُوٍّ ومُرَتَّلٍ واحدٍ، هو القرآن ذاته؛ معبّراً عنه تارةً بلفظ (القرآن)، كما في قوله تعالى:﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩١ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ...إلخ ٩٢ ۝﴾ (النّمل: ٩١-92)، وقوله:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ، وَمَا تَتْلُو مِنْهُ ([١٠]) مِن قُرْآنٍ..إلخ﴾]يونس: ٦١[.وتارةً بلفظ(الكتاب)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ([١١]) وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ..إلخ﴾]فاطر: ٢٩[وتارةً ثالثة بلفظ(الوحي)، و(الكتاب) كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾]الكهف: ٢٧[وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ..إلخ﴾]البقرة: ١٢١).

لأنّ المراد بفعل (التّلاوة)، في الآيات السّابقة: تلاوة الأداء التّعبّدي والإباني أو الإبلاغيّ؛ الدّعويّ أو الرّساليّ للقرآن، لذلك فهو يتضمّن معنى الاتّباع؛ إتّباع المتلوّ- بوصفه القرآن- قولاً وعملاً، متضمّناً اتباع ما يأمر باتّباعه، وتجنّب ما ينهى عنه، ومن ثمّ، معنى امتثال المقروء وتمثّله وتمثيلهّ.

وبهذا يكون تعالى- في الآية الأولى- قد أمر نبيّه(ﷺ)بالمواظبة على قراءة القرآن- في الخلوة مع نفسه وعلى النّاس- وترتيله، كما هو، في ذاته، أو كما أنزل عليه، بواسطة الأمين جبريل،وأمره، من ثمّ، بامتثال أمره واجتناب نهيه، ودعوةالنّاس إليه وإبلاغهم إيّاه، في الوقت عينه.

قال ابن فارس: التّاء واللّام والواو، أصل واحد، يتضمّن معنى الاتباع، يقال: تلوته إذا تبعته ([١٢]). وهو- في لسان العرب ([١٣])- من تلاه يتلوه تلوا: تبعه، وأتلاه: سبقه، وأتلاه إيّاه: أتبعه، وتتالت الأمور: تتابعت وتلا بعضها بعضا، وتلا فلان: إذا اتبعه، فهو تال: أي تابع، وتلو الشّيء: الذي يتلوه، وهذا تلو هذا: أي تبعه، وناقة متل ومتلية: يتلوها ولدها، أي يتبعها، والتّلو: ولد الشّاة أو النّاقة؛ سمّي به لأنّه يتبع أمّه، وجمعها: أتلاء، وتلوت القرآن تلاوة: قرأته قراءة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ..إلخ﴾]البقرة: ١٢١) معناه: يتبعونه حقّ اتّباعه ويعملون به حقّ عمله، وفلان يتلو فلانا: أي يحكيه ويتبع فعله ([١٤]). في إشارة أكيدة إلى أنّ تلاوة القرآن أو الكتاب تعني: اتّباعه قراءةً له، واتباعه فهماًومعرفةً به، واتّباعه أمراً ونهياً: أي تمثّلاً له وعملاً به.

---

[١٠] أي وما تَتْلُو مِنَ الكتابِ (في جملته). في إشارة إلى أنّ الكتاب أعمّ من القرآن، وأنّ القرآن جزء من الكتاب، أو مكوّن من مكوّناته الرئيسة، وجامع لأهمّ ما فيه، ويمكن أن يكون المراد: وما تتلو منه، أي من القرآن (في جملته) مِن قُرْآنٍ؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ كَما أنَّ القُرْآنَ اسْمٌ لِلكلّ الْمَجْمُوعِ، فَكَذَلِكَ هو اسْمٌ لِكُلِّ جُزْءٍ مِن أجْزاءِ القُرْآنِ، والإضْمارُ قَبْلَ الذِّكْرِ يَدُلُّ عَلى التَّعْظِيمِ. وقيل: المراد: من الله. (ينظر: الرّازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج١٧، ٢٧٢).

[١١] المراد بـ" كتاب الله" هنا: نصّ القرآن الكريم/ المكتوب/ المقروء/ المتلوّ؛ تلاوة أداء تعبّديّ؛ تقرّباً إليه تعالى، بدلالة قوله بعد ذلك: "وأقاموا الصّلاة، وأنفقوا .. إلخ"، لا تلاوة تلقّ عن جبريل أو تلاوة بيان وإبلاغ إلى العالمين كافّة.

[١٢] ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (أحمد) تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، مادة (ت- ل- و).

[١٣] ينظر: مادة تلو.

[١٤] ينظر: مادة (تلو) في لسان العرب.

وبهذا يتّضح أنّ فعل التّلاوة، ومثله فعل (التّرتيل) الذي لم يرد في القرآنإلّا متّعدّياً إلى مفعول مذكور، أي فعلاً مغلقاً على مرتّلٍ بعينه، هو القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ، وَرَتِّلِ (١٥) الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤﴾]المزمل: ٤[.- يختلفان عن فعل القراءة المأمور به في مطلع السّورة الافتتاحيّة، وذلك من جهة أنّ هذين الفعلين لم يردا إلّا مغلقين على مقروء محدّد، هو المقروء الإلهيّ، ممثّلاً في القرآن الكريم، وهذا خلافاً لفعل القراءة الذي جاء، في القرآن عموماً، تارةً مغلقاً على مقروء بعينه، هو القرآن، وتارةً مفتوحاً على متعدّد المقروءات ولانهائيّها، وهو الكثير الغالب في القرآن. وبما يؤكّد أنّ الأمر الإلهيّ بتدشين مشروع النّبوّة / القراءة، في هذه السّورة الافتتاحيّة، يعدّ أمراً إلهيّاً مفتوحاً بقراءة كلّ ما يمكن قراءته وإقراؤه، ممّا هو دالّ، وله دلالة، في حين يعدّ الأمر الإلهيّ بالتّلاوة أو التّرتيل أمراً إلهيّاً بتلاوة وترتيل متلوّ ومرتّل خاصّ، هو القرآن الكريم.

وبهذا أيضاً يكون الخطاب الإلهيّ(القرآنيّ) الآمر بتدشين مشروع فعل القراءة المفتوح (اقرأ) قد أشّر إلى ضرورة أن ينفتح مجال هذا الفعل المأمور به؛ ليشمل كافّة مجالات الحياة الإنسانيّة ومتطلّبات الوجود الإنسانيّ الفاعل على الأرض، بما يليق بمكانة الإنسان ودورهفي بناء الحياة على الأرض وعمارتها، والتّأكيد، من ثمّ، على ما يمكن تسميته بـ" القراءات البينيّة" التي باتت اليوم تمثّل ضرورة ملحّة من ضرورات الإبداع البشريّ، في مجالات الحياة كافّة، وهي القراءة التي ينفتح خلالها الوعي القارئ – كما قلنا- على حقول المعرفة الإنسانيّة بكافّة أشكالها وألوانها، لمواجهة أوضاع الإنسان على مستوى حيواته كافّةً.

هذا فيما يتعلّق بسؤال القراءة الأوّل: ماذا نقرأ ؟.

(٣-٢) انفتاح مواقع القراءة

أمّا فيما يتعلّق بسؤال القراءة الثّاني: كيف نقرأ ما نقرأ؟ فيمكن القول: إنّ الخطاب الإلهيّ الآمر بتدشين مشروع فعل القراءة المفتوح مجالاً، قد قيّد هذا الفعل بقيد واحد: كونه فعلاً متحقّقاً، أو حاصلاً(باسم ربّك)؛ باسم ربك- أنت أيّهذا القارئ/ المتلقّي المباشر والضّمنيّ (١٦)- أي باسم مَنْ له عليك، حقّ الولاية والسّيادة، لأنّه وحده المالك المتصرّف في جميع أمرك،وليس باسم أيّكائن آخر سواه؛ أكان شخصاً أم جهةً أم هيئةً أم مؤسّسةً، أو حتّى مقروءاً ما (مؤسّسيّا) معيّناً؛ تنتمي إليه أيّهذا القارئ. في إشارة جليّة إلى أنّ الأصل في مشروع القراءة المأمور بتدشينه في خطاب الآية يعدّ:

-مشروعَ قراءةٍ وإقراءٍ من مقام كمال العبوديّة لمعبود واحد، هو الله جلّ وعزّ؛ أي من موقع أنّك –أيّهذا الإنسانُ القارئُ/ المخاطَبُ بخطاب الآية- عبدٌ مملوكٌ لِمَلِكٍ مَالِكٍ واحدٍ؛ هو (الله)، وأنّ كلّ مَنْ عدا وما عدا هذا المَلِك المالك الواحد، هو مخلوق من جنسك، لا فرق بينك وبينه، ما يحتّم عليك–أيّها الإنسان القارئ العبد- أن تتواضع له، وأن تدخل في علاقة حيّةٍ مباشرةٍ معه، في إشارة جليّة أيضاً إلى أنّ مشروع القراءة المأمور بتدشينه، في الخطاب الإلهيّ الآمر، يعدّ:

- مشروعَ قراءةٍ من موقع؛ اعرف نفسك أيّها الإنسان القارئ، أواكشف ذاتك واكتشف إمكاناتك

---

١٥ المراد: ترتيل أداء تعبّديّ، وليس ترتيل مراجعة وإتقان. والتّرتيل والرّتل- في لسان العرب-: حسن تناسق الشّيء، ورتّل الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهّل فيه. والتّرتيل في القراءة: التّرسّل فيها، والتّبيين من غير بغي (ينظر: مادة ر- ت-ل). وفي معنى الآية قال أبو العبّاس: ما أعلم التّرتيل إلّا التّحقيق والتّبيين والتّمكين في قراءة القرآن. وقال مجاهد: التّرتيل التّرسّل. وقال ابن عبّاس: بيّنه تبيينا. وفي صفة قراءة النبّي: كان يرتّل القرآنَ آيةً آيةً. وترتيل القراءة: التّأنّي فيها، والتّمهّل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيها بالثّغر المرتّل، وهو المشبّه بنور الأقحوان. أمّا قوله:" ورتلناه ترتيلا" فمعناه: أنزلناه على التّرتيل، وهو ضدّ العجلة والتمكّث فيه. قال ابن عاشور: التَّرْتِيلُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُرَتَّلًا، أيْ: مُفَرَّقًا، وأصْلُهُ مِن قَوْلِهِمْ: ثَغْرٌ مُرَتَّلٌ، وهو المُفَلَّجُ الأسْنانِ، أيْ: المُفَرَّقُ بَيْنَ أسْنانِهِ تَفْرِيقًا قَلِيلًا، بِحَيْثُ لا تَكُونُ النَّواجِذُ مُتَلاصِقَةً. وأُرِيدَ بِتَرْتِيلِ القُرْآنِ تَرْتِيلُ قِراءَتِهِ، أيْ: التَّمَهُّلُ في النُّطْقِ بِحُرُوفِ القُرْآنِ، حَتّى تَخْرُجَ مِنَ الفَمِ واضِحَةً مَعَ إشْباعِ الحَرَكاتِ الَّتِي تَسْتَجِقُّ الإشْباعَ. ووَصَفَتْ عائِشَةُ التَّرْتِيلَ فَقالَتْ: لَوْ أرادَ السّامِعُ أنَّ يَعُدَّ حُرُوفَهُ لَعَدَّها لا كَسَرْدِكم هَذا. وفائِدَةُ هَذا: أنْ يَرْسَخَ حِفْظُهُ، ويَتَلَقّاهُ السّامِعُونَ، فَيَعْلَقَ بِحَوافِظِهِمْ، ويَتَدَبَّرَ قارِئُهُ وسامِعُهُ مَعانِيَهُ، كَيْ لا يَسْبِقَ لَفْظُ اللِّسانِ عَمَلَ الفَهْمِ. قالَ قائِلٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: قَرَأْتُ المُفَصَّلَ في لَيْلَةٍ، فَقالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذا كَهَذِّ الشِّعْرِ؛ لِأنَّهم كانُوا إذا أنْشَدُوا القَصِيدَةَ أسْرَعُوا لِيَظْهَرَ مِيزانُ بَحْرِها، وتَتَعاقَبَ قَوافِيها عَلى الأسْماعِ. والهَذُّ: إسْراعُ القَطْعِ (ينظر: التّحرير والتّنوير، الدار التونسية للنشر، المكتبة الشاملة،ج٢٩، ص ٢٦٠).

١٦ ما نعنيه بالمخاطب المباشر هنا: النّبيّ الرّسول محمّد (ﷺ) الذي عليه أنزل القرآن، وأمر بإبلاغه لباقي المكلّفين من أمّته، ممن يفترض أنّه يحتلّ موقع المخاطَب/ القارئ الضّمني.

من خلال مقروءاتك، ومن ثمّ، من موقع تعرّف على ذاتك وعلى الآخرين انطلاقاً من ذاتك، وعبر مقروءاتك، وهذا يعني أنّه:

- مشروعُ قراءةٍ من موقع طرح أسئلة الوجود والمصير؛ حول المقروء وحول الذّات القارئة، في الآن عينه؛ من أين نحن؟ ماذا نحن؟ كيف نحن؟ إلى أين نحن؟ومن ثمّ، من موقع التّفاعل والجدل مع مقروءاتنا ومع ذواتنا القارئة؛ سعياً إلى اكتشاف حقائقها وحقيقة ذواتنا من خلالها.

وبهذا يكون خطاب الآية الآمر بالقراءة، قد أشار، وإنْ من طرفٍ خفيّ إلى حقيقة مهمّة من حقائق الوجود الإنسانيّ، تتعلّق بطبيعة الموجود الإنسانيّ ذاته، بوصفه الإنسان القارئ- المباشر والضّمنيّ- الذي توجّه إليه خطاب الآية الآمر، وأنّه- بما أنّه عبد لسيّد واحد، هو الله جلّ في علاه-ليس عبداً مملوكاً لعددٍ لا متناهٍ من السّادة المتألّهين؛ منهم السّيد النّص، وأنّ عليه- بما الأمر كذلك- ألّا يخضع، خلال فعل القراءة، لأيّة سلطة رقابيّة- داخليّة أو خارجيّة-إلّا فقط لسلطانه تعالى؛ المالك المتصرّف في الكون والحياة، ومن ثمّ، غير سلطان ضميره الدّينيّ أو الأخلاقيّ المستمدّ من عقيدة الإسلام وشريعته الخالدة، وهي، كما نعلم، سلطة رقابيّة داخليّة في الأصل، وإن تمظهرت في هيئات وأشكال خارجيّة.

وفي هذا إشارة جليّة أخرى إلى أنّ علينا، ونحن نقرأ ما نقرأ، ألّا نقرأه من موقع أنّنا مملوكون تابعون له، ولا كذلك من موقع أنّناسادةمتألّهون عليه، وإنّما من موقع أنّنا جميعاً مخلوقون؛ نحن مخلوقون، وما نقرأه، هو الآخر،مخلوق من جنسنا؛ لا فرق بيننا وبينه، ما يحتّم علينا الدّخول معه في عمليّة تفاعليّة جدليّة حيّة مباشرة؛ نأخذ خلالها ونعطي؛ نؤثر خلالها ونتأثّر، لأنّنا بهذه الطّريقة، وبهذه الطّريقة وحدها نستطيع أن نتحقق في مقام كمال العبوديّة لله أوّلاً، وفي مقام كمال التّحرّر من عبوديّة كلّ معبود سواه ثانياً، وأن نسهم،من ثمّ ثالثاً، في إنتاج المعرفة الإنسانيّة المحققة لنا وفينا معنى الوجود الإنسانيّ الفاعل في مجرى الحياة الإنسانيّة علىالأرض. وما لم نتبن هذا الموقف القرائيّ من كلّ ما نقرأ،فإنّنا سنظل ندور في حلقة التّخلّف المفرغة، ولن يكون بمقدورنا الإفلات من قبضة التّبعيّة للآخر، وتجاوز حالة الاستلاب التي كنّاها وما نزال حتى هذه اللّحظة التّاريخيّة.

فحتى نتمكّن من التّحوّل من موقع الانفعال إلىالفعل، ومن موقع التّأثر السّلبي إلى موقع التأثير الإيجابيّ في مسيرة الحياة المعاصرة، ومن ثمّ، من موقع استهلاك المعرفة الإنسانيّة ومخرجاتها إلى موقع المشاركة في عمليّة الإنتاج الشّاملة، علينا أن نتبنّ الموقف القرائيّ الثّالث، وأن نتعامل مع كلّ مقروء من مقروءاتنا من موقع أنّنا وإيّاه كائناتٌ حيّةٌ؛ ناطقةٌ أو متكلّمةٌ؛ وأنّ علينا- بما الأمر كذلك- أن نصغي إليه ونكالمه، أو أن نتعاطى الكلام معه؛ فلا نفرض عليه شروطنا كاملة، ولا نخضع لشروطه كاملة، إلّا أن يكون هذا المقروء من جنس المقروءات الكاملة المكتملة (المقدّسة)أو التي نعتقد فيها الكمال والاكتمال، فإن كان المقروءمن هذا الجنس، كما هو الحال بالنّسبة لنصّ الكتاب العزيز (القرآن) فإنّه يتوجّب علينا، أن نفهمه فحسب، أو أن نتعرّف على حقيقته فحسب [١٧]، وأن نتعرّف على حقيقته كما هو في ذاته، لنتعرّف على حقيقة ذواتنا في ضوئه، أو من خلاله. وهذا يعني أنّعلينا أن تقرأه قراءة معرفيّة خالصة، وليس قراءة نقديّة، فالنّص الإلهيّ المقدّس(القرآن) لا يقرأ قراءة نقديّة، بل قراءة معرفيّة؛ بسيطةًأومركّبةً، على نحو ما سنرى لاحقاً.

هذا عن سؤال القراءة الثّاني: كيف نقرأ؟

(٣-٣) انفتاح وظائف القراءة

أمّا فيما يتعلّق بسؤال القراءة الثّالث: لماذا نقرأ ما نقرأ ؟ فنقول: إنّ خطاب السّورة الآمر بتدشين مشروع النّبوّة، قد أشار- ضمن ما أشار-إلى أنّالأصل في فعل القراءة المأمور بتدشينه في هذه السّورة الافتتاحيّة:

-أنّه إنّما يأتي في مواجهة أسئلة الوجود والمصير الإنسانيّ المؤرّقة: من أنا؟ من أين أنا؟ كيف أنا؟ لماذا أنا؟ إلى أين أنا؟ متضمّنةً أسئلة الخلق والمعاد؛ هذه الأسئلة التي نعتقد أنّها حقّاً قد أرّقت الكائن الإنسانيّ منذ كان على الأرض، وبقيحائراً- إزاءها-يتخبّط في دياجير جهله وعماه، إلى أن أشرق نور الوحي من السّماء، فأضاء له ما أظلم من عالم وجوده، وعلّمه ما جهل من العلوم

[١٧] متضمّناً ذلك: التّعرف على ما ينطوي عليه من حقائق وجودية ومعرفية.

والمعارف.

وبهذا يكون خطاب الآية الآمر بالقراءةقد أشار- وإن من طرف خفيّ-إلى أنّ ما يستهدفه القارئ بفعل القراءة المأمور بتدشينه، هو لا شيء سوى البحث عن إجابات ممكنة عن أسئلة الوجود والمصير هذه.

ولأنّ عقل الإنسان قد بقي حائراً وعاجزاً عن الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل حاسم ومقنع أو مطمئن، فقد جاءت الإشارة القرآنيّة، في مطلع هذه السّورة الافتتاحيّة، إلى أنّ من شأن مشروع القراءة/ النّبوّة المأمور بتدشينه هنا: أنّه إنّما جاء لتبديد حيرة السّؤال، وكلّما يترتّب على هذه الحيرةأو ينجم عنها، من أوهام ومخاوف، وضبط إيقاع الحياة على الأرض بما يحقّق مراده تعالى منها. لذلك كان هذا المشروع- في جوهره- مشروع تعلّم وتعليم بالكتابة والقلم (الذي علّمبالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم) ([١٨])؛ولأنّه مشروع تعلّم وتعليم بالكتابة والقلم، فهذا يعني:

-أنّهقد جاء في مواجهة جهل ([١٩]) الإنسان وجاهليّته([٢٠])؛ في مواجهة جهلِ الإنسانِ بحقيقة وجوده ومصدر وجوده، متضمّناً جهلَهُ بأصلِ خلقتِه ومادّةِ خلقتِهِ (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)، وجهلِهِ بحقيقة خالقه ومدبّر أموره (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، وجهلِهِ بحقيقةِ معاده وعواقبِ أمورِهِ (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨))، ومن ثمّ، في مواجهة جاهليّةِ الإنسانِالمترتّبةِ على جهلِهِ أو المتسبّبة عن حالة جهله بجملة تلك الحقائق الوجوديّة المشار إليها مجتمعة، والتي لا تزول إلّا بالعلم والتّعلّم.

---

[١٨] وهو مشروع تعلم وتعليم للكتاب المنزل على نبيّه ورسوله محمّد (ﷺ) ما ينطوي عليه من حقائق، قال تعالى:" هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتنا ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبله ،،،إلخ).

[١٩] الجهل – في لسان العرب- من جهل يجهل جهلاً وجهالة فهو جاهل؛ تقول: جهلتُ عليه: تصرّفت معه بحمق، وجهلت الأمر أو جهلتُ به: ما علمته، وجهلت الحقّ: أضتعه، والجهل في اصطلاح أهل الكلام: اعتقادك الشّيءَ على خلاف ما هو عليه. وهو إمّا بسيط، أو مركّب. والبسيط هو: عدم معرفتك بالشّيء، مع تسليمك بعدم معرفتك، أمّا المركّب: فهو اعتقادك الشّيء على خلاف ما هو، مع عدم تسليمك بجهلك. فالجهل البسيط إذن تعبير أطلق على من يسلم بجهله، أمّا الجهل المركّب فتعبير أطلق على من لا يسلّم بجهله، ويدّعي ما لا يعلم. والجهل في الأصل: صوت غليان القدر، والجاهل: من لا يقرأ ولا يكتب: العاميّ، الغبيّ، والأميّ (ينظر: مادة –ج-هـ- ل) .

[٢٠] نميّز هنا بين مفهوم الجهل ومفهوم الجاهليّة، من جهة أنّ الأصل في الجهل عموماً أنّه نقيض العلم عموماً، وهو حالة من خلوّ الذّهن وعدم العلم بما يجب أن يعلم، أو بما هو واجب التّعلّم والتّعليم من أمور الدّنيا والدّين، والذي من شأنه أنّه قد يكون بسيطاً، وقد يكون مركّباً، أمّا الجاهليّة فوضعيّة أنطولوجيّة سلوكيّة مترتّبة على حالة الجهل التي يكون عليها الجاهل، ومنبثقة عنها، أو قل: إنّها، بتعبير آخر: كلّ ما يفضي إليه جهل الجاهل من سلوك أنانيّ أو عدوانيّ، غير سوائيّ، محكوم بمنطق الأنانيّة والعصبيّة، وإرادة القوّة العمياء، إزاء غيره من أفراد البشر، فهي (الجاهليّة) إذن عبارة عن السّلوك غير السّوائيّالمتمخّض عن جهل الجاهل بحقيقة وجوده، وبحقيقة موجده، وبحقيقة العلاقات التي ينبغي أن تنشأ بينه وبين غيره من بني جنسه، وبحقيقة الغاية أو المصير الذي سيؤول إليه وجوده. ومن ثمّ، فهي نسق من المعرفة والتّصوّر والسّلوك والاعتقاد المناهض لمنطق العقل والعقلانيّة، ومن ثمّ، للتّصرّف الواعي المسؤول، المحكوم بمنطق العصبيّة والقوّة الغاشمة.

وقد ورد لفظ "الجاهليّة" في مواضع مختلفة من القرآن، وتضمّن الدّلالة على عدد من الدّلالات المركزيّة، أبرزها:

١. نمط من السّلوك السّوسيو-سياسيّ المحكوم بمنطق الأنفة والعصبيّة للباطل وبالباطل، أو لقانون الانفعال والقوّة، وليس لقانون الحقّ والعدل، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾]الفتح: ٢٦[، لأنّ المراد بالحميَّةِ في الآية: الأنفة والعصبيّة؛ أنفة كفّار مكّة أن يقرّوا للنّبيّ محمّد بالنّبوّة والرّسالة، وعصبيّتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

٢. نمط من الحكم والقضاء الجائر؛ غير العادل؛ كونه يقوم على التّمييز بين النّاس، وعدم المساواة فيما بينهم في الحقوق والواجبات؛ وذلك في قوله تعالى:﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾]المائدة: ٥٠[لأنّ المراد بـ" حكم الجاهليّة" نمط الحكم والقضاء الذي كان سائدا في الْجَاهِلِيَّةِ؛ حيث كانوا يَجْعُلُونَ حُكْمَ الشَّرِيفِ خِلَافَ حُكْمِ الْوَضِيعِ، كما كانوا يفضلون بعض أولادهم على بعضهم الآخر، وَكَانَتْ الْيَهُودُ تُقِيمُ الْحُدُودَ عَلَى الضُّعَفَاءِ الْفُقَرَاءِ، وَلَا يُقِيمُونَهَا عَلَى الْأَقْوِيَاءِ الْأَغْنِيَاءِ، فَجاء الإسلام لمواجهة هذه الوضعيّة الجائرة، في الحكم والقضاء، وليرسّخ- بدلاً عن ذلك- مبادئ العدل والمساواة بين النّاس في الحكم والقضاء، وبين الأولاد في الميراث والعطاء.

٣. نمط من السّلوك الاجتماعيّ المنحرف عن منطق الفطرة السّويّة، والخاضع لمنطق الغريزة، المنفلت من قيم الدّين والأخلاق والحشمة، وذلك في قوله تعالى:﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾]الأحزاب: ٣٣[.

٤. نمط من الفكر والتّصوّر المنحرف؛ المحكوم بمنطق سوء الظّنّ بالله جلّ وعلا، وعدم الثّقة به وبوعده ووعيده؛ وعده للمؤمنين بالنّصر، ووعيده لأعدائه وأعدائهم بالهزيمة، وذلك في قوله تعالى:"﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ ﴾]آل عمران: ١٥٤[.

ولأنّ الأصل في مواجهة حالة جهل الإنسان، أنّها إنّما تكون بالعلم والتّعلّم- كما أشرنا قبلاً- التّعلّم عن الله (العليم) بدءاً؛ كونه الحكيم الرّحيم الذي تكفّل بتعليم الإنسان ما لم يعلم، وذلك لا يكون إلّا عبر أداة محدّدة هي القراءة التي أداتها الكتابة بالقلم- فإنّ الأصل في مواجهة جاهليّة الإنسان، أنّها إنّما تكون بسنّ الشّرائع وفرض القوانين التي من شأنها أن تنظّم حياة البشر، وتسمو بها في مدارج الكمال الإنسانيّ. وهذا- بالفعل – ما سعت كلّ الأديان والشّرائع السّماويّة إلى تجسيده واقعاً عمليّاً، في حياة البشريّة؛ بدءاً من أبي البشر آدم عليه السّلام، وانتهاء بالنّبيّ العربيّ الخاتم؛ محمّدٍ(ﷺ)، حيث سعى دين الإسلام وشريعته الخالدة إلى تجسيده؛ واقعاً معاشاً في حياة أمّة الإسلام وشريعته الخالدة.

وبهذا يغدو مشروع النّبوّة/ القراءة المأمور بتدشينه، في مطلع هذه السّورة:

-مشروعمواجهةٍ حيّة مباشرة مع طغيان الإنسان عموماً وتجبّره؛ على الله وعلى خلقه،ومن هنا أيضاً جاء قوله تعالى في مطلع المقطع الثّاني من هذه السّورة الافتتاحيّة: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى(٧)) ليؤكّد حقيقة مهمّة من حقائق الوجود الإنسانيّ، وأنّ الإنسان عموماً- بما هو جنس أو نوع [٢١]- ميّال بطبعه إلى الطّغيان: وأصل الطّغيان تجاوزُ الحدّ في كلّ شيء، متضمّناً: تجاوز حدّ العدل إلى الظّلم، وتجاوز حدّ التّوازن والاعتدال في السّلوك والتّصرّف إلى التّطرّف والغلوّ، وتجاوز حدّ النّافع إلى الضّار، وحدّ المباح إلى غير المباح، أو حدّ ما يجب إلى ما لا يجب أو إلى ما لا يجوز، ومن ثمّ، تجاوز حدود ما هو للإنسان على الآخرين من حقوق، إلى ما للآخرين عليه من حقوق، متضمّناً تجاوز حدود ما به يكون الإنسان هو إلى ما به يكون سواه، ممّا هو متجاوز قدره.

وبهذا أيضاً يغدو مشروع النّبوّة القراءة المأمور بتدشينه: مشروع تحرير للإنسان من كلّ ما يستلبه إرادته، ويصادر حريّته، ويحول بينه وبين التّحقق في مقام كمال العبوديّة لله، بوصفه تحقّقا في مقام كمال التّحرّر من كلّ معبود غير الله؛ أكان من الحجر أم من البشر. فكان هذا المشروعُ بحقٍّ وحقيقة، نتيجةَ لذلك وبسببه، مشروعَتحرير للإنسان (عقلا وروحا وجسدا) من كلّ ما يستلبه إرادته، ويصادر حريته في التفكير الحرّ وفي التّعبير الحرّ؛ قراءةً وكتابةً.

-٤- انفتاح مستويات القراءة

انطلاقاً ممّا سبق، وتأسيساً عليه، وعودة إلى سؤال العليّة؛ علّيّة القراءة: لماذا نقرأ ما نقرأ؟ الذي طرحناه في الفقرة السّابقة ووعدنا بالعودة إليه، يمكن القول: تتعدّد مستويات القراءة عموماً وتتفاوت، بتعدّد أهدافِها ومقاصدِها،وبتعدّدِ وتتفاوتِ إمكاناتِ القرّاء، ومدى قدرتهم على تحقيق تلك الأهداف والمقاصد. ما يسمح لنا بالحديث- في هذه القراءة العجلى- عن خمسة أنواع من القراءة، تجسّد حضور خمسة مستويات من العلاقة التي تنشأ بين القارئ و(النّص) المقروء؛ نجملها في الآتي:

(٤-١) قراءة الإتقان:

وهي مستوى من القراءة الأوّليّة التي يسعى خلالَها القارئُ إلى امتثال وتمثّل المقروء وإتقانِ قراءته، كما هو في ذاته؛ دون زيادة فيه أو نقصان منه، وهذا المستوى من القراءة لا يكون إلّالمقروء نعتقد فيه الكمال والاكتمال؛ دالّاً ودليلاً، ومعلوم أنّه ما من مقروء، يمكن وصفه بالكمال والاكتمال؛ دالّاً ودليلاً غير نصّ واحدٍ؛ هو نصّ الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾]فصلت ٤١-٤٢[؛ الذي أنزله تعالى على نبيّه محمّد (ص) بلفظه ومعناه، ليتعبّدنا بتلاوته، من جهة، وليكون نبراس هداية للعالمين كافّة، من جهة أخرى.

وهذا النّوع من القراءة هو الذي عُلِّمَهُ نبيّنا محمّد (ﷺ) بدءاًعن الله بواسطة الأمين جبريل عليه السّلام، حيث قال تعالى:﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ١٦ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنه ١٧ۖ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ١٨ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ١٩ۖ﴾]القيامة: ١٦-١٩[. وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤ۖ﴾]طه:١١٤[فهاتان الآيتان تتحدّثان عن قراءة الإتقان أو التّلقّي الأوّليّ؛ تلقّي القرآن عن الله بواسطة الأمين جبريل عليه السّلام، ولا تتحدّثان عن قراءة الأداء التّعبّديّ

[٢١] لأنّ (أل) في (الإنسان) لاستغراق الجنس؛ جنس الإنسان. قال ابن عاشور: اللّام مفيدة للاستغراق العرفّي (ينظر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م: ٢٧ / ٢٣٢.

أو البلاغيّ (الدّعوي أو الرّسالي)؛ وهي القراءة التي هدفها إبلاغ رسالة القرآن الإسلاميّة إلى النّاس؛ مقروءاً أو متلوّاً كما أنزل. والمعنى في الآية الثّانية: لا تعجل- يا محمّد- في قراءتك للقرآن قبل أن يفرغَ جبريلُ من إقرائه إيّاك، أو لا تعجل في إقرائه أصحابك، قبل أن تقرأه أنت، سليماً كاملاً كما أنزل عليك، بمعنى لا تلْقِهْ إلى النّاس، قبل أن تستوثق أنّك قد تلقيته سليماً كما ألقي عليك.

وهذا النّوع أو المستوى من قراءة الاتقان هو ذاته المستوى الذي نتعلّمه نحن ونعلّمه لأطفالنا وطلابنا في مراحل التّحصيل الأوّليّ. فهي إذن مستوى من القراءة من أجل تمثّل المقروء وتمثيله، ومن ثمّ، من أجل حفظه، كما هو والاحتفاظ به في ذاكرتنا، وتمثّله واقعاً في سلوكنا.

(٤-٢) قراءة الأداء

وهي مستوى من القراءة، يهدف خلالَه القارئُ إلى إظهار حقيقة المقروء، والإبانة عنه، ومن ثمّ، إلى تعليمه للغير، كما هو.وهذا النّوع من القراءة، في القرآن، نوعان:

أ. قراءة أداء (تلاويّ) تعبّديّ (وهي القراءة المتحقّقة في الحضرة الإلهيّة= في الصّلاة، أو في المناجاة والخلوة مثلا).

ب. وقراءة أداء (تلاويّ) بيانيّ؛ تعليميّ أو دعويّ؛ إبلاغيّ؛ في سياق وعظ النّاس وإرشادهم أو دعوتهم إلى طريق الحقّ والهدى التي دعا إليها القرآن. وهي قراءة؛ كان هدفها إبلاغ الخطاب القرآنيّ ذاته إلى الكافّة- عبر الصّحابة- وهي أيضاً القراءة ذاتُها التي كان النّبيّ (ﷺ) قد أُمِرَ بإقرائها للصّحابة أيضاً، ودلّ عليها عدد من الآيات، منها:قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ١٠٦﴾]الإسراء:١٠٦[وقوله:﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾]النّحل: ٩٨-١٠٠،

وقد جاء التّعبير عن هذا النّوع من القراءة تارةً بلفظ التّلاوة، قالتعالى:﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩١ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ..إلخ (٩٢)]النّمل: ٩١-٩٢[وتارةً بلفظ (التّرتيل)، قال تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤﴾]المزمل: ٤[

وقد كان هذا النّوع من القراءة ربّما هو الوسيلةَ الوحيدةَ لإبلاغ رسالة التّوحيد وبناء العقيدة الإيمانيّة الصّحيحة التي دعا إليها القرآن، في مرحلة الدّعوة في مكّة. بدليل أنّ جلّ من أسلم من زعماء الصّحابة قد كان إسلامهم ناجماً عن تأثّرهم الحيّ المباشر بسحر البيان القرآنيّ وقوّة حجّته، وملامسته لشغاف قلوبهم.

- القراءة الوظيفيّة أو النّفعيّة:

ويندرج في إطار ما نسمّيه بـ" القراءة الأدائيّة" ما بمكن تسميته بـ:" القراءة الوظيفيّة أو النّفعيّة". وهي نوع من القراءة التي نهدف من خلالها إلى أداء وظيفة ما؛ غاية أو مقصديّة، تقع خارج إطار فعل القراءة ذاته، فأنا أقرأ مقروءاً- الآن- هنا، لأنّ لديّ -بعد الآن- هناك، محاضرةً لطلابي في الجامعة، أو لأنّ لديّ درساً في النّحو أو في الأدب لطلابي في المدرسة، أو لأنّي أريد أن أبحث عن إجابة لسؤال كان وما يزال يؤرّقني، ويدفعني للبحث عن إجابة عنه. إذن هي قراءة تتحقّق في زمنكان مختلف أو مغاير لزمنكان تحقّق الوظيفة أو الغاية أوالمقصديّة النّهائيّة منها.

وهي من هذا الوجه، تختلف عمّا سنسمّيه لاحقاً بـ" القراءة المتعويّة" التي تتحقّق وظيفتها بتحقّق فعل القراءة ذاته، وليس خارج إطار فعل القراءة.من هنا فالقراءة الوظيفيّة تعدّ نوعاً من القراءة الأدائيّة التي نؤدّي خلالها وظيفةً معيّنة؛ لها صلة بعالم وجودنا الواقعيّ (الخارجيّ). وهذا يعني أنّنا نكون مدفوعين إلى هذا النّوع من القراءة بدوافع الضّرورة؛ ضرورة الوجود الواقعيّ في الخارج، لتلبية متطلّب من متطلّبات هذا الوجود؛الاجتماعيّاً والتّاريخيّ، من ثمّ، المعيشيّ اليوميّ؛ للإجابة عن سؤال، أو للبحث عن حلّ لمشكلة تواجهنا في حياتنا، للنّهوض بدور ما أو وظيفة، تقع خارج إطار فعل القراءة ذاته، داخلاً في ذلك ما نقوم به تلبية لضرورة العمل، أو استجابة لدواعي التّخصّص..إلخ...

(٤-3) القراءة المعرفيّة

وينقسم هذا المستوى من القراءة إلى نوعين:

٤- ٢- ١ : القراءة المعرفيّة البسيطة:

وهي مستوى من القراءة أحاديّة الاتّجاه التي يهدف خلالها القارئ إلى (مجرّد) فهم المقروء واستيعاب دلالاته وأبعاده؛ كما هو في ذاته؛ دون أن يكون لديه ما يقوله له أو يتبادله معه؛ فهي نوع من قراءة

القارئ خالي الذّهن الذي لا ينطلق في قراءته لمقروئه من موقع/ موقف معيّن، أو من زاوية رؤية خاصّة به، أو حتّى من مقروء سابق؛ يعبّر عن وجهة نظر أخرى مغايرة لوجهة النّظر التي يكرّسها النّص المقروء؛ وبحيث إنّك لو توجّهت إلى مثل هذا القارئ بسؤال القراءة: لماذا وقع اختيارك على هذا المقروء بالذّات لتقرأه، لجاء ردّه على الفور: لأنّي أريد أن أفهمه، أن أستوعبه، أو لأنّ فيه ما يثري وَعْيِي، ويزيد من رصيد خبرتي في مجال اختصاصيّ؛ في إشارة إلىأنّ هدف هذا المستوى من القراءة: بناءُ الشّخصيّة المعرفيّة للقارئ؛ بإكسابه خبرة جديدة،تنضاف إلى خبراته السّابقة، وتسهم في تكوين شخصيّته المعرفيّة.

لذلك تعدّ هذه القراءة قراءة معرفيّةً لازمةً، غير متعدّيةٍ؛ إذ هي في الأصل،تابعة للمقروء، متداخلةٌ فيه، غيرُمتخارجة عنه صوب الذّات القارئة، ومن هنا، فهي من هذا الوجهقراءة مستلبة بشروط المقروء؛ خاضعة لمنطقه؛ ويمكن وصفها بكونها قراءة استهلاكيّة([٢٢]) تابعة.

٤ـ ٢ـ ٢ :القراءة المعرفيّة المركّبة:

وهي مستوى من القراءة يهدف خلالها القارئ إلى فهم المقروء في ذاته، وفهم الذّات أووضعها في ضوئه، فهي إذن نوع من القراءةالكلّيّة المركّبة أو المزدوجةالتي يسير فيها الوعي القارئ في اتّجاهين متعاكسين؛ في اتّجاه (النّص) المقروء، من جهة، وفي اتّجاه الذّات القارئة من جهة ثانية. وتعدّ، في جوهرها، نوعاً من القراءة التّأويليّة العقليّة الاستدلاليّة (السّيميائيّة) التيأشار إليها الخطابُ القرآنيّ المؤسّس، في أكثر من موضع، وبأكثر من صيغة([٢٣])، وحثّ عليهاأيضاً في الكثير من آياته الحاثة على التّأمل والنّظر في الآيات القرآنيّة النّصيّة، وفي آياته تعالى الكونيّة والأنفسيّة.

من ذلك- على سبيل التّمثيل- قوله تعالى:﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) الحجر: ٧٤- ٧٥، لأنّالمراد بـ(المتوسّمين) في الآية: المتفرّسين، من الفراسة، وأصل الفراسة([٢٤]) إدراك المجهول في ضوء المعلوم، والاستدلال بالشّاهد على الغائب،في إشارة إلى أنّ المراد بهم:المتأمّلون في تلك الآيات- بمعنى العلامات الدّالة على انحراف مَنْ حلّ بهم العذاب من قوم لوط، وشذوذ فطرتهم وغضبه تعالى عليهم- النّاظرون فيها نظرَ تأمّلٍ واعتبارٍ واستبصارٍ؛ فهم الذين يدركون العواقب في ضوء المقدّمات، والنّتائج في ضوء الأسباب؛ وهذا يعني أنّهمالذين يعقلونما يمكن أن يحلّ بهم من عذاب في ضوء ما حلّ بغيرهم، ممّن سبقهم إلى سلوك سبيل الزّيغ والضّلال عن طريق الفطرة السّليمة؛ فطرة الله التي فطر النّاس عليها.

لذلك نجد أنّه يشترط في هذا المستوى من القراءة: تجاوز إستراتيجيّة الرّؤية الحرّة المباشرة لذات المقروء، إلى إستراتيجيّة التّأمّل والنّظر في دلالاته وأبعاده.نقول هذا انطلاقاً من أنّ فنّ الرّؤية" الحرّة المباشرة- حسب إتيان سوريو([٢٥])-، خلافاً لفنّ النّظر، ذو طبيعة خاصّة، يرفض كلّ محاولة لمراقبة الأشياء (من خارجها)، أي انطلاقاً من وضعيّة مرسومة سلفاً، لأنّه يقوم أساساً على التّناغم مع الواقع (المرئيّ) ذاته، كما هو في حضوره الماثل الآن- هنا، رافضاً ترسيمه وفق مقولات جاهزة ([٢٦]). ومن هنا نفهم السّر في تعدّد المرئيّات (الدّوال البصريّة على سبيل التّمثيل) في أعين النّاظرين إليها، إذ هو تعدّد راجع - في اعتقادنا- إلى ثلاثة أو ربّما أربعة أسباب رئيسة؛ يتمثّل أوّلهما: في اختلاف المسافة التي تفصل الرّائي عن مرئيّاته. ويتمثّل ثانيهما: في اختلاف زاوية النّظر إلى تلك المرئيّات. ويتمثّل ثالثهما: في

---

[٢٢] وصفنا هذه القرآءة بـ" الاستهلاكيّة" كونها تستخدم المقروء، بما هو مجرّد أداة أو مادّة (وعاء) للفهم؛ فلا تفجّر ما فيه من طاقات كامنة، ولا تضيف إليه شيئاً جديداً.

[٢٣] حيث جاء التّعبير عنها تارةً بلفظ " التّدبّر" وتارةً بلفظ التّفكّر، وتارةً بلفظ " التّذكّر" وتارةً بلفظ "الوعي"، و" النّظر". للوقوف على طبيعة هذه الصّيغ المعرفيّة وآليّات عملها، يمكن العودة إلى كتابنا: نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة، مرجع سابق، الفصل المعنون " عقلنة الحسّ": ١٤٥، وما بعدها.

[٢٤] وأصل اشتقاق اللّفظ- كما يقول الرّازي- من قولهم:" فَرَسَ السَّبُعُ الشّاة"، فكانت الفراسة عبارة عن اختلاس المعارف بهذا الطّريق المعيّن (ينظر: الرّازي (فخر الدين)، الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق النّاس وطبائعهم، تحقيق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة (د. ت): ٢٢). وأَصْلُ التَّوَسُّمِ: التَّثَبُّتِ وَالتَّفَكُّرِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْوَسْمِ، وَهُوَ التَّأْثِيرُ بحديدة في جلد البعير وغيره (ينظر: مادة " و- س- م" في لسان العرب).

[٢٥] نقلاً عن منذر عياشي، مدخل العلاماتية (السيميولوجيا)، كتاب الرياض: ٩٤.

[٢٦] ينظر: طريقة نظرتي إلى الحياة، هيديوكوباياشي (١٩٠٢-١٩٨٣م)، ترجمة وتقديم: محمد عضيمة، نزوى، ع ٤٤، أكتوبر ٢٠٠٥، ص ٧٠.

اختلاف المقاصد والأغراض التي توجّه سلوك الرائيّ إزاء مرئيّاته. ويتمثّل رابعها: في أنّ الرّائي لا يرى- في حقيقة الأمر –مرئيّاته (ذاتها)، ولكنّه يرى – فقط- الآثار الواقعة عليه منها. وهذا يقتضي أنّه لا يدرك الشّيء في ذاته، ولا تنطبع صورته في حواسّه كما هو (بمعنى لا تنقله حواسّه إليه نقلاً حيّاً مباشراً، كما هو)، ولكنّه يدرك فقط آثاره الواقعة على حواسّه، من جهة، أو قل: الاستجابة الشّخصيّة الفريدة التي تنجزها حواسّه إزاءه، من جهة أخرى[٢٧].

وهي مرحلة من الوعي والإدراك أو التّعقّل والمعرفة أشار إليها الخطاب القرآنيّ في بعض سياقاته، لاسيّما سياق نعيه على الكفّار توقّفهم عند هذه المرحلة من الوعي والإدراك فقط، وعدم تجاوزها إلى مراحل أخرى من التّعقّل والنّظر الباحث في دلالات هذه الآيات وأبعادها، على نحو ما يوحي بذلك قوله تعالى:﴿ **وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾]القمر ٢[. إذ نلاحظ أنّ الكلام في الآية قد جرى مجرى الاضطرار والتّعليق، وليس مجرى الاختيارِ والتّحقيق، أي مجرى اضطرار هؤلاء المشركين المعاندين إلى رؤية تلك الآية/ بمعنى العلامة التي لا يرغبون في رؤيتها أصلاً [٢٨]؛ ربّما لأنّها تُلزِمُهم الحجّةَ، وتُقِيمُ عليهم الدّليلَ، وتسبّب لهم إحراجاً أمام أتباعهم، وتفرض عليهم ضرورة الإيمان بها وبما نصبها تعالى للدّلالة عليه. وبما يشير إشارة جليّه إلى أنّ المراد بفعل الرّؤية الجمعيّ في الآية (وإن يروا): الرّؤية الحسّيّة العابرة بعيون أبصارهم للآية، وليس بعيون بصائرهم؛ عقولهم وقلوبهم، إذ هم أصلاً بلا بصائر؛ ولو كانوا ببصائر لتفكّروا في تلك الآية (المرئيّة) وتدبّروا في دلالتها وأبعادها، ولما بادروا- أصلاً - إلى الإعراض عنها وتسخيفها قبل أن يتأمّلوها ويعملوا نظرهم فيها، لأنّ المراد بالإعراض في الآية – كما نعتقد- رفض التّوجّه الكلّي أو الكيانيّ (بأبصارهم وبصائرهم أو بكلّ إمكانات المعرفة والاستبصار النّاهضة فيهم) صوب الآية المرئيّة، حتى لا يروها على حقيقتها؛ فيدركوا دلالتها وأبعادها، وربّما يكون المراد به الإعراض الجزئيّ؛ المتضمّن رفض التّوجّه صوب المرئيّ بالبصر، وعلى هذا يكون المراد بقوله في الآية:" يعرضوا" يعرضوا بأبصارهم عنها حتّى لا يروها –ببصائرهم- على حقيقتها، فيدركوا أبعادها ودلالتها على ما نصبها تعالى للدّلالة عليه [٢٩].

(٤ – ٤) القراءة النّقديّة

وهي القراءة التي يهدف خلالها القارئ إلى مساءلةَ المقروء في ذاته، ومساءلة ذاته في ضوئه. وهذا يقتضي أنّها قراءة المقروء من زاوية أخرى مغايرة؛ أو قل: إنّها – بتعبير آخر- قراءة المقروءفي ضوء مقروء آخر؛ قد يتمثّل هذا المقروء الآخر:

- في نصّ القراءة النّقديّة (المعياريّة) السّائد والسّابق في الوجود على وجود القارئ الآن- هنا، بوصفه النّص الذي ينطوي على سنن القراءة وقوانينها، ويسهم في تشكيل أفق انتظارات القارئ عموماً[٣٠]... وعن هذا المستوى من القراءة يتمخّض نوع من القراءة النّقديّة المعياريّة التّقويميّة التي يهدف خلالها القارئ إلى تقويم المقروءات العلمية المعياريّة (أبحاث علميّة محكّمة: رسائل ماجستير، ودكتوراه، وأبحاث ترقية، وأعمال علميّة أكاديميّة مؤسّسيّة معياريّة...إلخ)،

- وقد يتمثّل هذا المقروء الآخر في نصّ السّياق السّوسيو-سياسيّ- ثقافيّ– تاريخيّ[٣١]، الذي يفرض شروطه على القارئ، ويملي عليه منطق

---

[٢٧] ينظر: منذر عيّاشي، مرجع سابق: ٩٤.

[٢٨]في إشارة إلى أنّهم في الأصل لا يرغبون في رؤيتها، وإذا قدّر لهم أن يروها رأوها رؤيةً عابرةً بعيون أبصارهم، لا بعيون بصائرهم، بدليل أنّه أتى بجواب الشّرط في الآيتين (وإن يروا) فعلا مضارعا غير متّصل بأيّ حرف من حروف الاستقبال" يعرضوا ويقولوا...إلخ" ليوحي بأنّ هذا شأنهم وديدنهم كلّما عرض لهم مرئيّ من مرئيّاته تعالى الكثيرة، وتحقّق منهم فعل الرّؤية، فكأنّه تعالى أراد أن يقول: إنّه كلّما أريناهم آية من آياتنا أو كلّما عرضت لهم آية من آياتنا الكثيرة العظيمة التي نصبناها في مرائي أبصارهم، رفضوا رؤيتها كما هي في ذاتها، وأعرضوا عنها، متذرّعين بأنّها لا تستحقّ منهم أن تُرَى، لأنّها مجرّد سحر وكهانة.

[٢٩] ينظر: الحميريّ، نظريّة المعرفة بين القرآن والفلسفة، مرجع سابق: ١١٧، وما بعدها.

[٣٠]في مفهوم " أفق انتظار القارئ" يمكن العودة إلى: ياوس (هانس روبرت)" جماليّة التّلقّي"، ترجمة: رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠٤م: ١١، ١٣٥

[٣١]لمعرفة المزيد عن هذا النص، يمكن العودة إلى : الحميري (عبدالواسع)، في الطّريق إلى النّص"، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر (مجد) بيروت، ط أولى ٢٠٠٨م: ١٢٨، ١٢٩.

قراءته للمقروء، وعن هذا المستوى من القراءة، يتمخّض نوع من القراءة الانتقاديّة المتسلّطة على المقروء، ورشقه بأحكامها الجاهزة، بهدف إظهار العيوب والكشف عن الخلل، ومن ثمّ، انحرافهعن معايير الذّوق العام، أو عدم انحرافه.

-وقد يتمثّل ذلك المقروء في نصّ القراءة النّقديّة الحلم[٣٢] الذي يسكن وعي القارئ، ويوجّه إرادته وسلوكه القرائيّ؛ خدمةً له، وسعياً إلى بلورة ملامحه، بما هو مشروع قراءة مستقبليّ، وعن هذا المستوى من القراءة، يتمخّض نوع من القراءة النّقديّة الإسقاطيّة المتعالية التي يهدف خلالها القارئ إلى الكشف عن ذاته واكتشاف إمكاناته القرائيّة الجاهزة، أو إلى التّأسيس لقراءة جديدة بشروط جديدة.

- وقد يتمثّل في مجمل هذه النّصوص –المشار إليها الآن هنا - مجتمعةً. وعن هذا المستوى من القراءة، يتمخّض نوع من القراءة النّقديّة التّأسيسيّة المركّبة التي تنهض في أفق الهدم وإعادة البناء؛ في أفق تفكيك المقروء وإعادة تركيبه بما يحقّق أهداف وطموحات القارئ في القراءة بوجه عام.

على أنّ الأصل في القراءة النّقديّة عموماً، بمستوياتها المختلفة، أنّها إنّما تأتي في مواجهة نوع من المقروءات/ النّصوص الكلّيّة المركّبة (=الإشكاليّة)؛ المزدوجة البنية والدّلالة التي من شأنها أن تروغ وتراوغ؛ أن تقول ولا تقول، أن تسمّي ولا تسمّي، أن تكشف وتحجب في الآن ذاته، ومن ثمّ، في مواجهة خطاب الكذب عموماً، أو الخطاب غير المباشر عموماً؛ داخلاً فيه: خطاب الفنّ والإبداع عموماً؛ أكان شعراًأم نثراً، إضافةً إلى خطاب السّياسة، داخلاً فيه خطاب الشّائعات، المشار إليه قرآنيّاً في قوله تعالى :﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾]النور ١٢[،فضلاً عن خطاب النّفاق عموماً؛ بوصفه خطاباً يظهر خلاف ما يبطن؛ فهو يظهر إيماناً وتصديقاً وعرفاناً وولاءً (لله ولرسوله وللمؤمنين)، ويخفي نقيض ذلك تماماً: كفراً وتكذيباً وعداءً (لله ولرسوله وللمؤمنين)، وهو الخطاب المشار إليه قرآنيّاً في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ؛ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ (٣٣) فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾]محمد: ٢٨-٣٠[. ومن ثمّ، فهي تستهدف كلّ خطاب محكوم بمنطق الإزاحة أو العدول؛ التّركيبيّ والدّلاليّ والتّداوليّ عن نمط التّخاطب المعياريّ؛ المألوف والسّائد.

لذلك فإنّ من شأن هذا النّوع من القراءة النّقديّة المحثوث عليها قرآنيّاً، أنّها تعدّ قراءةً من موقعالظّن أو الشّك؛ في حقيقة ما يقوله المقروء وصدقيّته، وإثارة الأسئلة حوله، أو حول ذواتنا في ضوئه؛ بحيث يشمل: (التّساؤل حول قالة الإفك في أمّ المؤمنين عائشة- على سبيل المثال-: حقيقة القائل؟ وحقيقة المقول فيه؟ وكيفيّة القول؟ ودوافع القول وأهدافه؟...إلخ).ومن ثمّ،فهي قراءة للمقروء من موقع الاتّصال به والانفصال عنه في الآن عينه؛من موقع الاتّفاق معه والاختلاف عنه ومعه، وبالتّالي، من موقع التّداخل فيه والتّخارج عنه، في الآن ذاته.

وللتّمثيل على هذا النّوع من القراءة قرآنيّاً، يمكننا التّوقف عند خطاب العدول/ الخطاب الملحون المشار إليه في قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾]محمد ٢٨-٣٠[إذ تشير هذه الآية إلى أنّ على النّبيّ(ﷺ) قراءة خطاب هؤلاء المنافقين الحاقدين عليه،الموتورين ضدّه؛ الملحون/ المعدول، قراءة نقديّة كاشفة حقيقته المرواغة، وحقيقة موقفهم منه(ﷺ) من خلاله، وكأنّه تعالى أخذ يحثّ نبيّه(ﷺ)أن يقرأ حال مخاطبيه في بنية هذا الخطاب الملحون، مقارنةً بحالهم/ طريقتهم خارج بنية هذا الخطاب، أي بحالهم في إطار نسق/ خطاب التّداول السّائد[٣٤]،

---

[٣٢]لمعرفة المزيد عن هذا النّص، يمكن العودة إلى : الحميري (عبدالواسع): اتّجاهات الخطاب النّقديّ العربيّ وأزمة التّجريب، دار الزّمان للطباعة والنشر والتّوزيع، دمشق، ط أولى ٢٠٠٨م: ١٠٤، ١٠٥.

٣٣المراد: لأريناكهم على حقيقتهم التي ما ينفكّون يخفونها عنك، ويظهرون لك خلافها. قال ابن عاشور: كانَ مَرَضُ قُلُوبِهِمْ خَفِيًّا، لِأَنَّهم يُبالِغُونَ فِي كِتْمانِهِ وتَمْوِيهِهِ بِالتَّظاهُرِ بِالإيمانِ، فَذَكَرَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ أنَّهُ لَوْ شاءَ لَأطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ واحِدًا واحِدًا، فَيَعْرِفُ ذَواتَهم بِعَلاماتِهِمْ.(ينظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق: ٢٦/ ١٢١)

[٣٤]ما نعنيه بنسق/ خطاب التّداول السّائد، نظام التّفكير والتّعبير المهيمن في مجتمع تخاطبي معيّن؛ والمتحكّم في وعي المتبادلين له، والموجّه لإرادتهم وسلوكهم، وهو من المفاهيم المتداولة في الدّراسات التّداوليّة وتحليل الخطاب، ومثله ما نسمّيه بنسق/ خطاب السياق الاجتماعيّ والتّاريخي...إلخ، ينظر في هذا الأخير تحديداً " في الطّريق إلى النّص"، مرجع سابق: ١٢٨، ١٢٩..

ومن ثمّ، من زاوية عدولهم عن نسق/ خطاب السّياق الاجتماعي والتّاريخي/ الثقافي في التّخاطب، إلى اختراعهم طريقة خاصّة بهم في التّخاطب معه(ﷺ)؛ في إشارة جليّة إلى حرصهم على اختراع شيفرة خاصّة بهم في مخاطبته(ﷺ)، حتى لا ينكشف نفاقهم وزيف موقفهم. وكأنّه تعالى أراد أن يقول لنّبيّه ورسوله:" إيّاك أن تصدقّهم فيما يبدونه لك من حبّ وولاء، وأن تقتنع بما يقولونه لك من كلام معسول؛ظاهره الحبّ وإظهار الولاء والطّاعة،وباطنه الحقد والضّغينة عليك وعلى من آمن بك.

ومن هنا، فهذا النّوع من القراءة النّقديّة هو المؤسّس لمقروء جديد، ولمنهج جديد في القراءة. ذلك لأنّ من شأن هذه القراءة أن تنهض في أفق تفكيك المقروء، وإعادة صياغته بما يحقّق هدف القارئ، أي بما ينسجم مع مشروعه الخاصّ في قراءة العالم؛ عالم الوجود وعالم الموجودات.

وبهذا يتّضح أنّما يميّز القراءة النّقديّة عن القراءة المعرفيّة المركّبة أنّنا في القراءة النّقديّة- بكافة أشكالها ومستوياتها-إنّما نستهدف المقروءات/ النّصوص البشريّة القابلة للتّفاوت؛ غير المكتملة التي تنطوي على فجوات دلاليّة، وتحتاج إلى من يملؤها، أو التي تنطوي على طاقة التّكلّم التي لا تنفد، فهي تتكلّم دون انقطاع، وتحتاج إلى من يصغي لها ويكالمها أو يحاورها.

وخلافاً لها القراءة المعرفيّة المركّبة التي نستهدف خلالها المقروءات/ النّصوص المعرفيّة الكاملة أو شبه الكاملة؛ التي نعتقد أنّها تنطوي على حقائق أو شبه حقائق، وتنتمي إلى حقول معرفيّة مختلفة، لذلك فهي قراءة للمقروء من موقع الانفتاح عليه في كليّته، للتّعرّف عليه كما هو في ذاته، والتّعرّف على وضع الذّات في ضوئه، وهذا يعني أنّها قراءة للمقروء من موقع التّصالح معه، كما هو في ذاته، والاعتراف بحقّه في الوجود كما هو في ذاته أيضاً، وعدم الشّك فيه أو التّشكيك في حقيقة وجوده؛ صحيح أنّنا قد نشكّأو نتشكّك في حقيقة دلالته، أو في حقيقة معرفتنا السّابقة به، ولكن شكّنا لا ينبغي أن يتطرّق إلى أصل وجوده؛ أهو موجود أم لا؟. وهذا راجع إلى أنّ مساءلة المقروء لا تكون إلّا حين نعتقد أنّالمقروء ناقص أو قابل للتّفاوت، وهذه مهمّة القراءة النّقديّة، أمّا حين يكون المقروء كاملا، أو نعتقد فيه الكمال والاكتمال؛ دالّاً ودليلاً، فإنّ عمليّة التّعرّف على أبعاده ودلالاته يجب أن تتمّ كما هو في ذاته، لاكتشافه واكتشاف الذّات في ضوئه.

(٤ – ٥) القراءة المتعويّة

وهي القراءة الجماليّة التي يجذبنا إليها النّص المقروء ذاته، بما هو مقروء نصّيّ متعويّ؛ يحقّق لنا اللّذة والمتعة القرائيّة؛ فهي قراءة مشروطة بالحرّيّة،ومن ثمّ، فهي قراءة من أجل القراءة، أي من أجل اللّذة والمتعة التي يحقّقها لنا المقروء، وهذا يعني أنّ وظيفة هذا النّوع من القراءة تتحقّق بمجرّد تحقّق فعل القراءة ذاته، وهذا بخلاف ما يكون عليه الحال بالنّسبة للقراءة الوظيفيّة التي نندفع إليها بفعل الضّرورة، وتتحقّق وظيفتها خارج فعل القراءة ذاته، أي في زمنكان خارج زمنكان فعل القراءةذاته (في قاعة المحاضرات بالنّسبة للأستاذ الجامعيّ الذي يقرأ ما يقرأ الآن- هنا إعداداً واستعداداً لمحاضرة الغد، أوفي قاعة الدّرس، بالنّسبة للمدرّس في المدرسة أو المعهد، أو في المسجد، بالنّسبة لشخص قرأ ليعدّ لموعظة يلقيها بعد صلاة العصر في المسجد، وهكذا.. وهذا يعني أنّ دوافع القراءة المتعويّة تعدّ دوافع غريزيّة فطريّة؛ وجوديّة، أكثر من كونها معرفيّة أو نفعيّة، أو وظيفيّة؛ وهذا النّوع من القراءة مرتبط بنوع خاصّ من المقروءات/ النّصوصالمتعويّة التي ينشئها الخيال، وتنطوي على فائض اللّذة والمتعة الإبداعيّة؛إنتاجاً وتلقّياً، وهي، في الغالب، متعة جماليّة؛ يسهم الخيال الخلّاق بدور مهمّ في صياغتها وإنتاجها؛ شعريّةً كانت أم نثريّةً، المهم أن يكون للخيال فيها نصيب كبير.

ويندرج في إطار هذا النّوع من القراءة ما يمكن تسميته بـ" القراءة من أجل الكتابة" (الإبداعيّة في حقل تخصّص القارئ/ الكاتب)، وما يمكن تسميته بـ" القراءة من أجل الوجود"؛ وجودي أنا كقارئ، ووجود كلّ ما به يكون وجوديّ القرائي/ الكتابيّ، ويعدّ هذا المستوى من القراءة شرط الوجود الحرّ للقارئ الكاتب، فأنا أقرأ لأنّني أحقّق خلال فعل القراءة حريّتي/ شرط كينونتي، أو لأنّني أكتشف خلال فعل القراءة ذاتي وتتكشف إمكاناتي، من هنا فهي قراءة مرتبطة في الغالب، أو قل: مشروطة بفعل الكتابة.

وقد كتب نورثروب فراي ذات مرّة، مؤكّداً دور القارئ في هذا النّمط من القراءة:" لقد قيل عن بويم (Boehme): إنّ كتبه مثل نزهة يجلب إليها المؤلّف الكلمات، بينما يأتيها القارئ بالمعنى"

([٣٥]). وهو- فيما نحسب- وصف دقيق لدور القارئ المبدع في جميع أعمال الفنّ الأدبيّ دون استثناء.
وبما يعني أنّ القارئ الذي ينتظره النّصالمتعويّقد خصّص له دورٌ ومكانةٌ في بنيته الأصليّة، ليحقّق، خلاف فعل القراءة الذي ينجز الآن- هنا- هدفين مزدوجين ومتكاملين هما: تحقيق النّص (المقروء) وبناء معناه أو أحد معانيه، وتحيق الذّات (القارئة) وبناء كيانها([٣٦]).
يّتضح من جملة ما سبق عرضه، في إطار ما أسمته الدّراسة، في محورها الأخير، بـ" مستويات القراءة" أنّ القراءة، بكافّة أنواعها ومستوياتها، تتمحور حول ثلاثة أنساق رئيسة، لأنّه لا يخلو:
-إمّا أن تتحقّق وفق شروط المقروء ذاته، ويتمخّض عن هذا النّسق نوع من القراءة التّابعة، المستكينة؛ غير المؤسِّسة، ومن ثمّ، غير المنتجة لمقروء جديد ولطريقة جديدة في القراءة؛ كونها تكتفي فقط بإعادة إنتاج المقروء كما هو. ويندرج في إطار هذا النّسق، ما أسمته الدّراسة بـ" قراءة الاتقان" و" قراءة الأداء"، فضلاً عن " القراءة الوظيفيّة" وكذا " القراءة المعرفيّة البسيطة"([٣٧]).
-أو تتحقّق وفق شروط الذّات القارئة، ويتمخّض عن هذا النّسق من القراءة، نوع من القراءة المتعالية أو المتسلّطة، ومن ثمّ أيضاً،غير المؤسّسة أوالمنتجة؛ كونها تكتفي بإعادة إنتاج نصّ الذّات القارئة؛ موقفاً ورؤيةً.ويندرج في إطار هذا النّسق، ما يمكن تسميته بـ" القراءة من أجل الهيمنة". نشير هنا، إلى أنّ القراءة قد تغدو- في وعي بعض القرّاء- مجرّد مشروع للهيمنة؛ هيمنة الذّات القارئة؛ أكانت هذه الذّات فرديّة أم جمعيّة؛ شخصيّة أم مؤسّسيّة ([٣٨]). وهذا النّوع من القراءة مشروطٌ بالكتابة ومرتهنٌ بها ارتهانَ مصيرٍ؛ حيث القارئ، في هذا النّمط، كاتبٌ بالضّرورة؛ فهو يقرأ مقروءاً ما، لأنّهيريد أن يكتب وأن يَسْتَكْتِبَ، في الآن عينه؛ أن يثيروأن يستثير، ومن ثمّ، لأنّه يريد أن يخندق قارئه، ليكون معه، أو ضدّه؛ بمعنى أنّهيريد من قارئه أن ينجرّ معه إلى ساحةِ القراءةِ/ الكتابةِ/ المواجهةِوالصّراعِ؛ مؤيّداً له، أو معارضاً، متبنّياً وجهة نظره فيما يكتب، أو حتّى مخالفاً وجهة نظره، إذ ليس مهمّا- بالنّسبة لهذا النّوع من القرّاء/ الكتّاب- أن يكون القارئ لما يكتبون؛ معهم أو ضدّهم؛ المهمّ هو أن ينحاز وأن يتحيّز،فحسب، أي أن يغدو قارئاً / كاتباً منحازاً لما يكتبون، أو ضدّ ما يكتبون؛ لأنّمن شأن موقفهم هذا أن يحقق طموحهم في الشّهرة والهيمنة.
ويعدّ التّأويل (التّعسّفي) الإسقاطيّ أحد أهمّ آليّات هذا النّوع من القراءة، بل ربّما كان هو آليّتها الوحيدة في إنتاج المعنى والدّلالة.
ويمكننا أن نرى أنموذجاً لهذا النّوع من القراءة/ الكتابة، في قراءة/ كتابة د. عبد الله الغذّاميّ، لاسيّما في كتابه المثير للجدل: النّقد الثّقافي: قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة".
- أو تتحقق وفق شروط الذّات القارئة من جهة، ووفق شروط النّص المقروء من جهة أخرى، وهذا النّسق من القراءة هو وحده النّسق المنتج للمقروءات الجديدة، بما تؤسّس له من طرائقجديدة في القراءة؛ كونه ينهض في أفق التّفاعل والجدل بين طرفي العلاقة، وليس بمعزل عنهما معاً أو عن أحدهما، وبحيث يتمّ خلالها إعادة إنتاج النّص المقروء، من جهة، وكلّ النّصوص القارئة له والمقروءة لأجله أو بسببه ([٣٩]) من جهة ثانية.
ويندرج في إطار هذا النّسق من القراءة التفاعليّة الجدليّة،أنواع القراءة الثّلاثة الأخيرة، والمتمثّلة في ما أسمته الدّراسة بـ " القراءة المعرفيّة المركّبة" و" القراءة النّقديّة" و" القراءة المتعويّة".
غير أنّه لا ينبغي أن يفهممن مجمل ما قلناهعن هذه الأنساق الثّلاثة، وما ينتمي إلى كل منها من مستويات القراءة المختلفة، أننا نزعم أنّه يمكن مفصلة هذه الأنساقأو المستويات، وعزل بعضها عن بعض، بحيث يمكن إقامة الحدود الفاصلة بين كلّ نسق وآخر، أو بين كلّ مستوى من مستويات القراءة وآخر، والحديث، من ثمّ، عن قراءة أدائيّة أو وظيفيّة خالصة بمعزل عمّا أسمته الدّراسة بـ"

---

[٣٥]فعل القراءة، نظريّة جماليّة التّجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ترجمة حميد الحميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، ١٩٩٤م: ٢٠.
[٣٦]ينظر: سعيد بنكراد: فعل القراءة وإشكاليّة التّلقّي: ص ٦ موقع سفيلك بخاصّة ادوارد سعيد، لاسيّما في كتابه" الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م والذي كرّسه لدراسة خطاب الاستشراق ونقده.
بنكرادhttp://www.saidbengrad.net/al/n10/5.htm
[٣٧]يجب الإشارة هنا إلى أن هذا التّوصيف المعرفي لهذا النّسق وما يندرج في إطاره من أنواع القراءة المشار إليها، لا يقلّل- بالمطلق- من أهميّة هذا النّسق في حياة القارئ، ودوره التأسيسيّ في بناء شخصيّته القرائية المعرفية، وتهيئته للنّهوض بدور المنتج لاحقاً.
[٣٨]يندرج في إطار هذا النسق من القراءة؛ القراءات الاستشراقية لتراث الشّرق العربي الإسلاميّ، كما كشف عن
[٣٩]سبقت الإشارة إلى هذه النصوص ص ٢٤، ٢٥ من هذا البحث.

القراءة المعرفيّة" أو " النّقديّة" أو " المتعوية" أو العكس. فنحن لا نزعم هذا، لأنّذلك أصلا غير ممكن، لذلك فإنّمسألة تصنيف هذه المستويات من القراءة لا يعدو أن يكون بحسب ما يغلب على كلّمستوى؛ ممّا يعد داخلا في أساسالفرق بين كلّمستوى وآخر، وإلا فالأصل في هذه المستويات أنها قد تتداخل حدودهابقدر ما، ولعلّذلك بالذات هو ما جعلنا نؤثر استعمال مفهوم " مستويات القراءة" دون استعمال مفهوم" أنواع القراءة".

خاتمة

وبهذا تكون الدّراسة قد توصّلت خلال طرحها لأسئلة القراءة التّأسيسيّة الثلاثة ومحاولة الإجابة عنها، انطلاقاً من مرجعيّة النّص القرآنيّ، إلى عدد من النّتائج، أهمّها:

١. أنّ ثمّة ثلاث إستراتيجيّات لتجريب فعل القراءة عموماً، يتمخّض عنها ثلاثة أنساق قرائيّة كبرى:
   - إستراتيجيّة الذّهاب إلى ← المقروء، لقراءته كما هو في ذاته، ويتمخّض عنها ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة الاستلابيّة التّابعة".
   - وإستراتيجيّة الإياب عن → المقروء، لقراءته، كما نحن، ويتمخّض عنها، ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة المتعالية".
   - وإستراتيجيّة الذّهاب إلى المقروء والإياب ↔ عنه في الآن ذاته، ويتمخّض عنها ما يمكن تسميته بـ" نسق القراءة التّفاعليّة الجدليّة".
٢. أنّ القراءة المنتجة للمعرفة هي القراءة التّجريبيّة الحرّة المباشرة التي ينفتح خلالها وعينا القارئ على المقروء من موقع أنّنا وإيّاه كائنات حيّة، ناطقة أو متكلّمة؛ وأنّ علينا- بما الأمر كذلك- أن نصغي إليه ونحاوره، أو أن نتعاطى الكلام معه؛ فلا نفرض عليه شروطنا كاملة، ولا نخضع لشروطه كاملة، إلّا أن يكون هذا المقروء من جنس المقروءات الكاملة المكتملة (المقدّسة) أو التي نعتقد فيها الكمال والاكتمال، فإن كان المقروء من هذا الجنس، كما هو الحال بالنّسبة لنصّ الكتاب العزيز (القرآن) فإنّه يتوجّب علينا، أن نفهمه فحسب، وأن نفهمه كما هو في ذاته، لنفهم ذواتنا في ضوئه. وهذا يعني أنّ علينا أن تقرأه قراءة معرفيّة خالصة، وليس قراءة نقديّة، فالنّص الإلهيّ المقدّس (القرآن) لا يقرأ قراءة نقديّة، بل قراءة معرفيّة؛ بسيطةً أو مركّبةً- كما أوضحت الدّراسة ذلك.
٣. أنّ القراءة عموماً تتعدّد مستوياتها وتتفاوت، بتعدّد أهدافِها ومقاصدِها، وبتعدّدِ وتتفاوتِ إمكاناتِ القرّاء في القراءة، ومدى قدرتهم على تحقيق تلك الأهداف والمقاصد. وانطلاقاً من ذلك وتأسيساً عليه، فقد رصدت الدّراسة خمسة مستويات للقراءة: ما أسمته بـ" قراءة الاتقان" و" قراءة الأداء" و" القراءة المعرفية" فـ" القراءة النقدية" و" القراءة المتعوية".
٤. أنّ القراءة الوظيفيّة هي القراءة التي يهدف خلالها القارئ إلى أداء وظيفة ما، تقع خارج إطار فعل القراءة ذاته، في زمن كان مختلف أو مغاير لزمن القراءة. أمّا القراءة المتعويّةفهي القراءة التي تتحقّق وظيفتها بمجرّد تحقّق فعل القراءة ذاته، أي في زمكان فعل القراءة ذاته، وليس خارج إطار هذا الزّمكان.
٥. أنّ " القراءة المعرفيّة" قسمان: قراءة معرفيّة بسيطة، وقراءة معرفيّة مركّبة، وما يميّز الثّانية عن الأولى أنّ الوعي القارئ في الثانية (المركبة) خلافا للأولى (البسيطة) يسير في اتّجاهين متعاكسين؛ في اتّجاه (النّص) المقروء، من جهة، وفي اتّجاه الذّات القارئة من جهة ثانية. لذلك فهي- خلافا للأولى- تمثل نوعاً من القراءة الكلية المركبة أو المزدوجة التي يهدف القارئ خلالها إلى فهم المقروء في ذاته، وإلى فهم الذّات أو وضعها في ضوئه.
٦. أنّ " القراءة النّقديّة" هي القراءة التي يهدف خلالها القارئ إلى مساءلةَ المقروء في ذاته، ومساءلة ذاته في ضوئه، وأنها، من ثمّ، قراءة المقروء في ضوء مقروء آخر، أو من زاوية أخرى؛ مغايرة لزاوية النّظر التي يجسّدها النّص المقروء، وهذا جوهر ما يميزها عن القراءة عن القراءة المعرفية بمستوييها: البسيط والمركّب.
٧. الأصل في القراءة النّقديّة، بمستوياتها المختلفة، أنّها إنّما تأتي في مواجهة نوع من المقروءات الكلّيّة المركّبة؛ المزدوجة البنية والدّلالة التي من شأنها أن تروغ وتراوغ؛ أن تقول ولا تقول، أو أن تسمّي ولا تسمّي، ومن

ثمّ، فهي تأتيفي مواجهة خطاب الكذب عموماً؛ داخلاً فيه: خطاب الفنّ والإبداع عموماً؛ أكان شعراً أم نثراً، إضافةً إلى خطاب السّياسة، داخلاً فيه خطاب الشّائعات، فضلاً عن خطاب النّفاق عموماً، ومن ثمّ، فهيتستهدف كلّ خطاب محكوم بمنطق الإزاحة أو العدول؛ التّركيبيّ والدّلاليّ والتّداوليّ عن نمط التّخاطب المعياريّ؛ المألوف والسّائد.

٨. أنّ ما يميّز القراءة النّقديّة عن القراءة المعرفيّة المركّبة أنّنا في القراءة النّقديّةإنّما نستهدف المقروءات/ النّصوص البشريّة القابلة للتّفاوت؛ التي تنطوي على فجوات دلاليّة، وتحتاج إلى قارئ يشارك في عمليّة إنتاجها، بملء تلك الفجوات، أو التي تنطوي على طاقة التّكلّم التي لا تنفد، فهي تتكلّم دون انقطاع، وتحتاج إلى من يصغي لها ويحاورها.
وخلافاً لها القراءة المعرفيّة المركّبة التي نستهدف خلالها المقروءات/ النّصوص المعرفيّة الكاملة أو شبه الكاملة؛ التي نعتقد أنّها تنطوي على حقائق أو شبه حقائق، وتنتمي إلى حقول معرفيّة مختلفة، لذلك فهي قراءة للمقروء من موقع الانفتاح عليه في كليّته، للتّعرّف عليه كما هو في ذاته، والتّعرّف على الذّات أو وضعها في ضوئه.

٩. أنّ " القراءة المتعويّة" هي القراءة التي يجذبنا إليها النّص المقروء ذاته، بما هو مقروء نصّيّ متعويّ، يحقق لنا اللّذة والمتعة القرائيّة؛ فهي قراءة مشروطة بالحرّيّة، من جهة، وباللّذة والمتعة، من جهة أخرى. ومن هنا فإنّ وظيفة هذا النّوع من القراءة- خلافا للقراءة الوظيفية- تتحقّق بمجرّد تحقّق فعل القراءة ذاته، أي في زمكان فعل القراءة ذاته، وليس خارج إطار هذا الزّمكان.

توصيات الدّراسة:

انطلاقاً من النتائج السابقة لاسيّما النّتيجة (١) و (٢):

١. توصي الدّراسة بضرورة اعتماد الإستراتيجيّة القرائيّة (جـ) الأخيرة؛ المؤسّسة لما أسمته بـ" نسق التّفاعل والجدل" كونها الإستراتيجيّة التي تساعد القارئ على تجاوز حالة الجمود القرائيّ الكتابيّ النّقديّ والمعرفيّ، وتمكنّه، في الآن نفسه، من المشاركة في عمليّة إنتاج المعرفة الجديدةالمتجدّدة باستمرار.

٢. كما توصي الدّراسة بضرورة فتح مجال القراءة على كلّ ما يمكن قراءته واكتناه دلالاته وأبعاده من المقروءات/ النّصوص، وآفاق التّفاعل معه بما يسهم في كسر قيد التّخصّص الأكاديميّ الضّيق وإعلان حالة الخروج إلى فضاءات القراءة البينيّة التي يتجاوز خلالها الوعي القارئ حدودَ الحقل المعرفيّ الذي ينتمي إليه، إلى حقول معرفيّة أخرى؛ هي على صلة مباشرة أو غير مباشرة بمجال اختصاص القارئ، هذه القراءة التي باتت تمثّل اليومَ ضرورةً ملحّة من ضرورات الحياة الإنسانيّة المعاصرة، وشرطاً أساسيّاً من شروط انتماء الإنسان القارئ إلى العصر، ومشاركته الفاعلة في إنتاج معارفه وقيادة مسيرة النّهوض بحياة مجتمعاته.

ثبت المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. أبو حيّان (محمّد بن يوسف)، البحر المحيط في تفسير القرآن، تحقيق: عادل أحمد- علي معوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م.

٢. أبو زيد (نصر حامد)، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٧، ٢٠٠٥م.

٣. البخاري (محمّد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، تحقيق: محمّد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط أولى ١٤٢٢ه.

٤. بن عاشور (محمّد الطّاهر)، التّحرير والتّنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٥. بن فارس(أحمد بن زكريا القزويني)، مقاييس اللّغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.

٦. بن منظور (جمال الدّين أبو الفضل)، لسان العرب، موقع الباحث العربيّ.

٧. بنكراد (سعيد)، فعل القراءة وإشكاليّة التّلقّي، موقع سعيد بنكراد http://www.saidbengrad.net/al/n10/5.htm

٨. الحميري (عبدالواسع):

- اتّجاهات الخطاب النّقديّ العربيّ وأزمة التّجريب، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط أولى ٢٠٠٨م.
- -في الطّريق إلى النّص، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنشر والتوزيع (مجد) بيروت، ط أولى ٢٠٠٨م: ١٢٨، ١٢٩.
- -نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) بيروت، ط أولى، ٢٠١٣م.

٩. الرّازي (فخر الدين)؛

- الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق النّاس وطبائعهم، تحقيق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن للطّبع والنّشر والتّوزيع، القاهرة (د. ت).
- مفاتيح الغيب، الرّازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ،

١٠. الزَّمَخْشَرِيُّ (أبو القاسم محمود بن عمرو جار الله)، الكشاف في تفسير القرآن، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط ٣، ٢٠٠٩م.

١١. سعيد (ادوارد)، الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

١٢. السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، طبعة أخرى (د. ت).

١٣. سحول(حسن مصطفى)، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

١٤. الطبري (ابن جرير)، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط أولى ٢٠٠١م.

١٥. القرطبيّ (شمس الدين)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.

١٦. عياشي (منذر)، مدخل العلاماتية (السّيميولوجيا)، كتاب الرياض.

كتب مترجمة:

١٧. إيزر (فولفغانغ)، فعل القراءة، نظريّة جماليّة التّجاوب في الأدب، ترجمة حميد الحميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، ١٩٩٤م.

١٨. كوباياشي (هيديو): طريقة نظرتي إلى الحياة، ترجمة وتقديم: محمّد عضيمة، نزوى، ع٤٤، أكتوبر ٢٠٠٥م.

١٩. ياوس (هانس روبرت)، جماليّة التّلقّي" ترجمة: رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠٤م